

太宰治

أوسامو ـ دازاي

人間失格

...ولم يعد رجلاً

ترجمة وتقديم: د. محمد عُضيمة



...ولم يعد رجلاً

رواية

أوسامو ـ دازاي

...ولم يعد رجلاً

رواية

ترجمة وتقديم: د. محمد عُضيمة



الطبعة الأولى 2016

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963 112257677
ص. ب: 11418، دمشق - سوريا
taakwen@yahoo.com

مقدمة

توفي دازاي ـ أوسامو سنة 1948، لكنه لا يزال يتمتع بصيت يشبه العبادة في اليابان. فهو يمثل جيل الكتّاب الذين عاشوا مرحلة ما قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، كما يمثل قلق وحيرة واضطراب جيل بالكامل. ولأنه تمرّد على مجتمعٍ يتسم بالقسوة المرعبة والامتثالية الهائلة للأعراف والتقاليد، يظلّ أثير الشباب الأول، مع أنّ شهرته تستند أساساً إلى حياته الشخصية أكثر من استنادها إلى نتاجه الأدبي. يتحدر من عائلة غنية تنتمي إلى الطبقة الحاكمة. لم تستطع هذه العائلة احتمال تصرفات الكاتب فعاقبته لأسباب كثيرة: لتعاطفه مع الأفكار الشيوعية [انظر ما يقوله الكاتب حول هذا الموضوع من ص47 إلى ص52 من هذه الرواية. م]، لحياته مع كايشة[1] من أصل وضيع، ولأنه هجر امرأة كان يعرفها لتوه، ولأنه أراد وضع حدّ لحياته في محاولة الانتحار الأولى ـ من ثلاث محاولات للانتحار حباً ـ ولأنه ـ كي يزيد الطين بلّة ـ استغل جميع هذه الفضائح كي تكون مصدر إلهامه الأدبي، عاشق كبير للنساء. أناني جداً، بكّاء، متأوه، سائر ضد التيار الأدبي السائد. لكنه حكيمٌ ومفكّر جيّد منذ بداية ظهوره على الساحة الأدبية. إنّه طفل مريع. مدمن مخدرات. مصاب بجنون

(1) كايشة أو جيشة (بنطق الجيم نطقاً مصرياً دارجاً): «فنانة». امرأة تعرف الرقص قليلاً والغناء قليلاً، وأحياناً تجيدهما تماماً. تعيش مع مثيلاتها في بيت يكون عادة للمتعة والشراب. والكايشات مستويات..!!.

الاضطهاد. وهذا ما أتاح له أن يكون مدّاح نفسه وأعنف ناقد لها في الوقت ذاته، هو الكاتب الياباني الوحيد الذي أنتج أعمالاً أدبية خصبة النوعية في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات (1930 ـ 1940) عندما كانت الأمة اليابانية تعيش زمن الإيديولوجية العسكرية وزمن الأصولية الوطنية المتطرفة. هذا الكاتب الأكثر شعبية بعد الحرب ـ وربّما لحد الآن ـ يضع حداً لحياته وفي عزّ مجده الأدبي، إذ ألقى نفسه في مياه قناة شبه مستنقع مع عشيقة عصابية ومهووسة بالموت، تاركاً وراءه زوجة دون أي فلس واحد، وثلاثة أطفال صغار، وعشيقة أخرى لها منه طفل لم يشاهده أبداً حياة مثيرة جداً ولا أحد يستطيع سردها أفضل من دازاي نفسه.

هو في الأساس كاتب قصص قصيرة. ومع أنه استخدم كمية هائلة من التقنيات والأساليب والأصوات المتعددة طوال مهنته ككاتب، غير أنّ ثلث إنتاجه الأدبي الرائع يأخذ صيغة ما ندعوه، بسبب انعدام تعبير آخر أفضل: «سيرة ذاتية متخيلة». يعني قصصاً مروية بضمير المتكلم، وتشبه في بنائها الحياة الخاصة. قد يدخل الخيال في قصص دازاي، لكنها مأخوذة بالكامل من حياته الشخصية.

اسمه الحقيقي هو: «تشوجي ـ تسوشيما». ولد في 19 حزيران سنة 1909 في قرية «كاناغي»، شمال مقاطعة «تسوكارو» في ولاية «آوموري» (أقصى شمال جزيرة «هونشو» الجزيرة الرئيسية في اليابان). وهو الولد الثامن بين إخوته وأخواته. لم تكن مقاطعة «تسوكارو» أكثر من منطقة زراعية متواضعة. لكن آل «تسوشيما» كانوا من جملة الملاّك الأثرياء في ولاية «آوموري»، وكان لهم تأثير سياسي هام. في صغره، لم يعرف «تشوجي» والديه إلاّ بالكاد. اهتمت به أولاً امرأة مرضعة. ثم أخذته إلى إحدى عماته. ومن بعدها خادمة اختفت من حياته قبل أن ينهي المرحلة

الابتدائية. في المراحل التالية كان أفضل تلميذ في صفه طيلة زمن الدراسة. وفي سنة 1923، أي السنة التي كان سيبدأ فيها مرحلته الثانوية، توفي والده وأصبح أخوه الكبير «بونجي» مسؤول العائلة.

كان «تشوجي» تلميذاً جيداً في المدرسة الثانوية، وكان يبدع في الإنشاء. نشر أوّل قصة له سنة 1925 في مجلة مدرسته. ثم تابع نشر كتاباته الأدبية طيلة سنوات الدراسة في منشورات طلابية وفي جرائد أدبية متواضعة. وفي سنة 1927 انتقل إلى «مركز الدراسات لعليا» بـ «هيروساكي» وسكن عند قريب بعيد له. وفي تموز من السنة ذاتها انتحر الكاتب المعروف «أكوتاغاوا ـ رينوسوكي». روّع هذا الحدثُ الشّابَ «تشوجي» إذ كان يعبد «أكوتاغاوا» أيما عبادة. وتغير سلوكه تغيراً جذرياً: بدأ بإهمال دراسته، وبدلاً من قصر وقته على الكتابة، أخذ يبحث عن رفقة نساء البارات والخمارات «كايشة». وراح يلبس بأناقة مفتعلة ويقصد المطاعم الراقية. وفي خريف السنة ذاتها التقى بـ«كايشة» مبتدئة تزوجها فيما بعد.

على الرَّغم من ميوله الغندورية، الداندية «المتخلفة»، ومع كونه ابن عائلة، أظهر اهتماماً كبيراً بالماركسية التي تجذرت في اليابان بقوة سنة 1920، على الرغم من المنع الحكومي الرَّسمي لها. في نهاية سنة 1929 بدأ قصة عنوانها: «جيل من مالكي الأراضي»، وهي مرافعة حقيقية ضد المعاملة الشنيعة التي كان يُعامل بها العمال الزراعيون من قبل العائلات الغنية كعائلته.

في ليلة 10 كانون الأول سنة 1929، غداة امتحانات نهاية السنة، ابتلع كمية كبيرة من الكالموتين (منوِّم كان يستخدمه بشكل منتظم وبه حاول الانتحار ثلاث مرّات) وغاب عن الوعي إلى نهاية اليوم التالي. وبعد سنوات ـ سنة 1945 ـ يصف هذا الحادث في مقالة عنوانها: «روزنامة الاحتضار»:

«بالتأكيد هناك حساسية جديدة قد ولدت لتوها. لا شيء يقترب من المصالحة. إنّها ديكتاتورية البروليتاريا. كان لا بدَّ من دحر الأعداء دون استثناء. جميع الأغنياء أشرار. وجميع الأرستقراطيين أيضاً. ومعنى الاستقامة لا ينتمي إلاّ للفقراء وللناس المسحوقين. كنتُ ميالاً إلى التمرد العسكري وإلى: ثورة من دون مقصلة لا معنى لها.

مع ذلك، لم أكن من طبقة البروليتاريا. كان دوري في كلٍّ هذا هو أن أسلِّم رقبتي للمقصلة. كنت طالباً عمره 19 سنة. وفي الصف أتدثر بعزلة هائلة. كنت أعتقد أنْ لا شيء يمكن فعله إلاّ الموت: فتجرعتُ كمية كبيرة من الكالموتين، لكن الموت لم يأتِ».

ولكي يشفى، قضى عطلة الشتاء مع أمه في حمام مياه معدنية. وفي تلك الفترة، تمَّ توقيف أعضاء من جريدته الطلابية وطردوا من المدرسة لأفكارهم اليسارية.

نجح «تشوجي» في امتحانات آذار سنة 1935، وفي نيسان أصبح طالباً في قسم اللغة الفرنسية بجامعة طوكيو الإمبراطورية. استأجر غرفة في فندق قريب من البيت الذي يسكنه أحد إخوته: أي أخوه «كيجي» الذي كان يدرس النّحت في كلية الفنون الجميلة. وفي أيار التقى بـ «إيبوسي ـ ماسوجي» الذي لم يكن آنذاك سوى كاتب واعد، لكن كان يحبه بشكل عميق (اعترف هذا الأخير فيما بعد أنه لم يقبل اللقاء بـ«تشوجي» إلا بعد أن تلقى منه رسالة تهدد بالانتحار إن لم يوافق على اللقاء)، أصبح «إيبوسي» فيما بعد دليل «تشوجي»، وصديقه وكاتم أسراره، والدّاعم الأمين والأساسي للكاتب دازاي طيلة بقية حياته. في ذلك الوقت تقريباً، بدأ «تشوجي»، بناءً على نصيحة أحد الوجوه القديمة في «هيروساكي»، بالمساهمة المادية وبالمشاركة في نشاطات الحزب الشيوعي غير القانونية.

في حزيران مات الأخ «كيجي» بمرض السّل، فلم يعد «تشوجي» يتابع دروسه إلاّ بشكل متقطع. وفي تشرين الأوّل هربت «أوياما ـ هاتسويو» من منزل الكايشات حيث كانت تعيش في ولاية «آوموري»، كي تلحق بـ «دازاي» في طوكيو. وفي الشهر التالي أخبرت إدارة منزل الكايشات الأخ الكبير «بونجي» باختفاء «هاتسويو». فأسرع هذا الأخير إلى طوكيو لتوضيح الأمر مع أخيه الأصغر: سمح له بالزواج منها شريطة أنٍ يقطع علاقاته بالعائلة تماماً. وهكذا انعتق آل «تسوشيما» من كلٍ مسؤولية مادية نحوه. عاد «بونجي» بـ «هاتسويو». إلى ولاية «آوموري» كي يدفع لإدارة المنزل ثمن تحريرها. وفي 19 تشرين الثاني طرد «تشوجي» من العائلة علناً وبشكل رسمي. وبعد ذلك بتسعة أيام قام بمحاولة انتحار ثانية بصحبة امرأة شابة ومتزوجة عمرها 19 سنة تدعى «شيميكو ـ تانابي»، وهي عاملة في «بار كينزا ـ هوليود»، كان قد التقاها منذ عدة أيام فقط في منطقة «كاما ـ كورا». أخذا كمية مفرطة من مادة الكالموتين واكتُشفا ملقيين في صباح اليوم التالي على الصخور قرب البحر. كانت «شيميكو» قد فارقت الحياة، أما «تشوجي» فلا. ثم استدعته الشرطة واستجوبته طويلاً. لكنّ تدخل آل «تشوسيما» أوقف ملاحقة الشرطة له. وفي كانون الأول تزوج «تشوجي» من «هاتسويو».

وفي كانون الثاني سنة 1931، وقّع الأخ الكبير «بونجي» مع أخيه «تشوجي» عقداً يتقاضى بموجبه الثاني من الأول «120» يناً شهرياً خلال السنتين التاليتين، شريطة ألا يترك المدرسة، ألا يوقفه البوليس، ألاّ يبذّر النقود، أن يوقف كلّ علاقة مع الحركات الاشتراكية، أن يتجنب التصرفات الفضائحية. وفي شباط لحقت به «هاتسويو» إلى طوكيو. لكن «تشوجي»، على الرّغم من وعوده لأخيه، تابع اتصالاته بالحزب الشيوعي، وقدّم ما لديه من نقود؛

وجعل بيته مكتب اتصال للحزب. لم يعد يكتب كما في السابق، وإن كان ينظم بعض قصائد الهايكو من حين إلى آخر. وفي نهاية تشرين الأول أو بداية كانون الأول، قضى ليلة في السجن ليسأل عن نشاطاته السياسية. وبعد هذا التوقيف الجديد، أخذ مسافة من الحزب وتوقف عن المساهمة المالية (قصة القطار).

في بداية حزيران سنة 1932 عرف أخوه «بونجي» من شرطة القرية أن أخاه قد أُوقِفَ في العام الماضي فقطع عنه الرّاتب بسرعة. وفي حزيران من السنة ذاتها كانت الشرطة تلاحق «تشوجي» من جديد. ويبدو أنه اختبأ واستأجر بيتاً باسم مستعار. في تلك الآونة، اكتشف ذات يوم من الأيام أن «هاتسويو» لم تكن تلك المرأة الشابة النقية التي أمل عندما تزوجها. وكان ذلك بالنسبة له خيبة كبرى. أخبره أخوه «بونجي» بأنه موافق على دفع أجرة بيته من جديد شريطة أن يتابع الدراسة وأن يذهب إلى شرطة المحافظة ليتعهد بعدم ممارسة أي نشاط سياسي. وهذا ما فعله مباشرة.

وأثناء العودة إلى طوكيو، انتقل مع زوجته إلى بيت في مزرعة مهجورة، وهناك استأنف الكتابة بشكل جدي. كان أحد أصدقاء أخيه المتوفى «كيجي» يسكن مع زوجته وابنه في البيت الرئيسي من المزرعة ذاتها، وهو الصحافي «توبيشيما ـ ساداشيرو». أول قصة يوقعها باسمه الأدبي «دازاي ـ أوسامو» هي قصة «القطار» نشر ستة 1933. لم يتوقف «دازاي» عن الكتابة طيلة تلك السنوات والسنة التالية، فجاءت مجموعة من القصص لتشكل كتابه الأول: «السنوات الأخيرة». قضى شهر آب من سنة 1934 عند أصدقاء له في محطة حمامات ميشيما المعدنية في جزيرة «إيزو». قصة «أمنية تتحقق» والقصة التي كتبها في تلك المحطة «وهمي» نشرتا في العدد الأول من جريدة «الوردة الزرقاء»: جريدة

أدبية أسسها «دازاي» مع فنانين آخرين مثل «ياماغيتشي ـ كايشي» و«دان ـ كازوؤ» وسوف يصبحان أقرب أصدقائه.

حوالي شهر آذار سنة 1935، كان واضحاً أن فرص نجاح «دازاي» في امتحاناته معدومة تماماً. وهذا يعني نهاية تحمل عائلته مسؤوليته المادية. طلب العمل في جريدة بطوكيو، لكن دون فائدة. كتابه «سنوات أخيرة»، وداعه الأخير للعالم، كان قد انتهى، وقرر من جديد أن ينصرف بالتي هي أحسن. فسحب في آذار 1935 مدخراته جميعها من المصرف وأمضى ليلة من ليالي العمر مع «كوداتي ـ زينشيرو»، طالب في كلية الفنون وشقيق زوج أخته. انفصلا في «يوكوهاما» حيث بقي «دازاي» إلى صباح اليوم التالي، ثم ذهب إلى الجبل قرب «كاما ـ كورا» وحاول أن يشنق نفسه هناك. لكن الحبل انقطع. أو ربما لم يمتلك شجاعة الذهاب إلى النهاية. فعاد إلى طوكيو في المساء ذاته وحول رقبته آثار حمراء، وهناك كان ينتظره بقلق أصدقاؤه وزوجته، إضافة إلى أخيه «بوجي» الذي جاء إثر برقية تخبره باختفاء أخيه. طلب صديقه «إيبوسي» من الأخ الكبير «بونجي» أن يدفع له معاش سنة أخرى. وفي أقل من ثلاثة أسابيع على هذا الحدث أسعف «دازاي» إلى المشفى بسبب التهاب الزائدة الحاد. ثم تطور هذا الالتهاب إلى التهاب الصِّفاق. وبقي في المستشفى مدة ثلاثة أشهر. وهناك اكتشف «البابينال»، وهو نوع من أنواع المورفين. ولدى خروجه من المشفى استأجر له أخوه الكبير بيتاً في «فوناباشي» (محافظة تشيبا) حيث كان عليه أن يعيش سنة ونصف السنة. لكن إدمانه المخدرات تزايد بشكل خطير، وبدأ يقترض النقود من الجميع للحصول على المخدرات (مناظر مذهّبة).

وفي تموز سنة 1935 رُشِّحت قصتاه: «ضد التيار» و«أزهار السخرية» لجائزة «آكوتاغاوا» (جائزة أدبية يابانية تمنح مرتين في السنة، وهي من أهم الجوائز التي تدفع بمن ينالها إلى الصف الأول من الشهرة). كان بأمسّ الحاجة إلى الاعتراف والامتياز اللذين تمنحهما الجائزة للفائز. لكنه لم يحصل عليها. وبعد الإعلان عن النتائج في شهر آب، قدمه صديقه «ياماغيتشي ـ كايشي» إلى الشاعر الكبير «هارووؤ ـ ساتو»، أحد أعضاء لجنة الجائزة، وقبل هذا الأخير أن يكون دليله وناصحه.

في أيلول، ينشر «كاواباتا ـ ياسوناري» ـ وكان عضواً آخر من أعضاء الجائزة ـ تقريراً يقول فيه: «على الصعيد الشخصي، أعتقد أنّ غيوم الفضائح المعلقة فوق حياة «دازاي»» الخاصة تضرُّ بعبقريته. فغضب «دازاي» من هذا الكلام غضباً شديداً، ونشر في الشهر التالي رسالة مفتوحة عنوانها: «إلى كاواباتا ـ ياسوناري» جاء فيها: «سوف أطعنه بخنجر، إنه ليس أكثر من أثيم غادر» وهذا ما ردَّ عليه «كاواباتا» بنص آخر عنوانه: «إلى دازاي أوسامو بصدد جائزة أكوتاغاوا» وفي هذا النص يعتذر «كاواباتا» إلى «دازاي» ويلومه في الوقت نفسه: «لأوهامه وشكوكه غير المسوّغة».

في كانون الأول، يستلم «دازاي» من الشاعر «ساتو ـ هارووؤ» بطاقة بريدية يشير فيها إلى المرة الثانية للجائزة المذكورة: «هذه المرّة سوف تكون الـ500 يناً من نصيبك». وفي شباط 1936، يرسل «دازاي» رسالة جوابية: «إذا حصلت على الجائزة، سوف أبكي من الشكر والتقدير للآخرين. سأكون قادراً على تحمل جميع الآلام ومتابعة الحياة... أرجوك أن تساعدني». أجاب «ساتو» مباشرة، لكن فقط كي يأمر «دازاي» بمتابعة علاجه من المخدرات. وبعد يومين دخل هذا الأخير المشفى وكان عليه أن يبقى فيه عشرة أيام. لكنه هرب أثناء

ليلتين ليشرب وليتعاطى المورفين. ترك المشفى دون أن يشفى. وفي النهاية لم توزع الجائزة هذه المرة.

رواية «السنوات الأخيرة»، نشرت في حزيران 1936. وفي آب علم «دازاي» أنها مرشحة للجائزة. هذه المرة كان «دازاي» المرشح الأول لنيلها. سافر إلى «ميناكامي»، وأثناء إقامته هناك علم بأنه لا يحق له الترشّح، لأنه سبق ورشح للجائزة نفسها. جن جنونه. فكتب مقالة هجاء يتهم فيها الشاعر «ساتو» بأنه خيَّب أمله وظنه، وأرسل مع المقالة قصة عنوانها: «ولادة» نشرت في تشرين الأول. وبعد شهر على هذا، نشر الشاعر «ساتو ـ هاروؤ» نصاً عنوانه: «جائزة أكوتاغاوا»، حيث يرسم بورتريه لـ «دازاي» ويقدِّمه على أنه كائن هذياني مجنون ومدمن مخدرات. لن يحصل «دازاي» على الجائزة، لكنّ الشهرة التي نالها لتوه من وراء كلٍّ هذا أكسبته اسماً وصيتاً وشعبية لدى النّاس جميعهم.

في 7 تشرين أول سنة 1936، ذهبت «هاتسويو» إلى عند «إيبوسي ـ ماسوجي» لتخبره بحالة «دازاي» الصحية المتدهورة جداً، ولتطلب إليه أن يحاول إقناعه بدخول المشفى مرّة ثانية. امتثل «إيبوسي» للطلب وذهب إلى عند «دازاي» في 12 تشرين الأول ليقنعه بعد يوم بالدخول إلى المشفى. وفي الليلة نفسها، أُدْخِلَ إلى مشفى أمراض نفسية بـ «إيتاباشي» حيث حجر عليه في غرفة خاصة. وأثناء أسبوع مزّق ثيابه، وكسر زجاج غرفته، وكتب على الجدران، وهاجم الأطباء والممرضات. ولم يُسمح لأحد بزيارته طيلة مدة الإقامة. زوجته «هاتسويو» التي لم يكن مسموحاً لها أن تزور زوجها، قامت بمغامرة جنسية مع صديقه «كوداتي ـ زينشيرو» الذي كان هو الآخر في مشفى آخر لأنه حاول الانتحار بفتح شرايينه.

خرج «دازاي» في 12 تشرين الثاني ووجب على أخيه «بونجي» أن يأتي إلى طوكيو بهذه المناسبة. ومرّة أخرى طلب «إيبوسي» وأصدقاء آخرون من «بونجي» أن يتابع مساعدة أخيه المادية ثلاثة سنوات هذه المرة (والواقع هو أن نقود العائلة لم تنقطع عنه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عندما أعلن «دازاي» نفسه أنه لم يعد بحاجة إليها). وعندما عاد «دازاي» وزوجته «هاتسويو» إلى طوكيو في آذار سنة 1937، أخبره صديقه «كوداتي» بالعلاقة العابرة مع زوجته. وفي منتصف آذار حاول «دازاي» و«هاتسويو» الانتحار من جديد بحبوب الكالموتين، ولكنهما لم يموتا أيضاً. ثم افترقا على أن لا يلتقيا أبداً. وحالما تمَّ الطلاق رسمياً في حزيران، انتقل إلى مسكن عائلي رخيص. أما «هاتسويو» فقد عاشت عند «كوداتي» فترة زمنية قصيرة. (يقال إنها عادت إلى ولاية آوموري، ثم عاشت في «هوكّايدو»، ثم في الصين، ودوماً خادمة في مطعم أو في بار. ماتت سنة 1944 وعمرها 33 سنة).

في السنة التالية لم ينشر «دازاي» كثيراً ثم جاءت قصته «أمنية مستجابة» في سنة 1938 لتكون نقطة انطلاق مرحلة من الإبداع الأدبي الكبير بالنسبة إليه. وحوالي منتصف شهر أيلول سمع نصيحة صديقه «إيبوسي» واعتزل في جبال «ميساكا» (منطقة «كوشو»، محافظة «ياماناشي»): مكاناً هادئاً ومنعزلاً عن العالم مع إطلالة رائعة على جبل فوجي (مائة إطلالة لجبل فوجي). وهناك قضى ستين يوماً دون التوقف عن الكتابة.

كان «إيبوسي» مصمماً على إيجاد زوجة جديدة لدازاي، فقدّمه إلى امرأة شابة تعيش في «كوفو» تدعى «إيشيهارا ـ ميتشيكو» واتفقا على الزواج. عاد «دازاي» من إقامته الجبلية في منتصف تشرين الثاني

ليسكن فندقاً في «كوفو» (أستطيع أن أتكلم). وفي 8 كانون الثاني سنة 1939 تزوج من «ميتشيكو» في بيت «إيبوسي» بطوكيو. وفي اليوم نفسه عادا إلى «كوفو» ليقيما في بيت استأجراه قرب المدينة. كانت الأشهر الثمانية التالية أشهر إنتاج بالنسبة لدازاي، ومنحته الاستقرار والراحة اللّذين لم يعرفهما أبداً. وكان أوّل عمل كتبه في بيته بـ «كوفو» هو «مناظر مذهبة». وفي تلك المرحلة أعماله الأخرى: «الكلب»، «طفلة جميلة»، «ممنوع المزاح».

ثم انتقل الزوجان إلى ضواحي طوكيو في أيلول 1939. وفي الشهر ذاته حضر تظاهرة تضم فناني ولاية «آوموري» القاطنين طوكيو. سَكِرَ وقدَّم عرضاً مثيراً للسخرية أمام الجميع.

في رأس سنة 1940، زار «دازاي» صديقه ومرشده القديم الشاعر «ساتو ـ هارووؤ» للمرة الأولى منذ أربع سنوات. وأشار إلى هذا اللقاء في قصة «ثماني لوحات لطوكيو» التي كتبها في تموز من السنة ذاتها.

ولدت ابنته الأولى «سونوكو» في حزيران سنة 1941. وفي آب عاد «دازاي» إلى قريته «كاناغي» للمرّة الأولى منذ عشر سنوات كي يرى أمه المريضة جداً (سيعود من جديد مع زوجته وابنته في تشرين الأوّل سنة 1942 أثناء موت أمه). وخلال حرب المحيط الهادي، كان «دازاي» تحت مراقبة السلطة الدقيقة، وكانت دور النشر تتردد في أن تطلب مخطوطات منه. غير أنه استطاع أن ينشر أكثر من عشرين قصة وعدة كتب ذات أهمية خاصة.

جاء ابن دازي «ماساكي» إلى العالم في آب سنة 1944. وفي تشرين الثاني من السنة ذاتها شهدت طوكيو أولى طلائع القصف الجوي. وفي آذار 1945 أخذ «دازاي» زوجته وأطفاله إلى بيت حميه بـ «كوفو». عاد

وحيداً إلى «ميتاكا»، ولكن سرعان ما تعرَّض بيته هو الآخر إلى القصف، فلحق بزوجته وأطفاله بـ«كوفو». وفي 7 تموز باكراً، قصفت «كوفو» أيضاً وتقوَّض المنزل هناك أيضاً. وبعد ثلاثة أسابيع عادت عائلته إلى قريته «كاناغي». ثم بعد فترة وجيزة ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما. وفي 15 آب أعلن الإمبراطور «هيرو ـ هيتو» هزيمة اليابان واستسلامها للحلفاء.

استقرَّ «دازاي» في بيت تعود مليكته إلى آل «تسوشيما». وفي الوقت الذي كان يكتب فيه بشكل كثيف، أحيا بعض العلاقات مع أصدقاء قدامى وأعطى بعض المحاضرات. وكان عليه أن يسكن 15 شهراً في المنطقة.

في تشرين الثاني عاد «دازاي» مع عائلته إلى «ميتاكا»، وفي كانون الأول استأجر مكتباً ليعمل به قرب بريد «ميتاكا». وكانت أول قصة يكتبها بعد عودته: «عيد ميلاد سعيد».

في كانون الثاني 1946 زارته إلى مكتبه امرأة تدعى «أوتا ـ شيزوكو». واستمرت العلاقة بعد ذلك من خلال اللقاءات والرسائل. كانت تريد أن تصبح كاتبة وقد شجعها «دازاي» على كتابة مذكراتها اليومية. وفي نهاية شباط زارها «دازاي» خلال خمسة أيام في بيتها بـ«شيمو ـ سوغا» محافظة «كانا ـ غاوا» واستعار منها مذكراتها اليومية التي أوحت له بروايته المعروفة «الشمس الغاربة».

في 27 آذار جاءته امرأة أرملة تدعى «يامازاكي ـ تومي» وقدّمت نفسها إليه: حلاّقة فقدت زوجها في الحرب بعد عشرة أيام من زواجهما. وكانت تفكر بوضع حد لحياتها. في 30 آذار ولدت البنت الثانية لدازاي وتدعى «ساتوكو» (أصبحت فيما بعد الكاتبة الكبيرة

المعروفة اليوم باسم «تسوشيما ـ يوكو») وفي ذلك الوقت تقريباً أخبرت «أوتا ـ شيزوكو» «دازاي» بأنها حامل منه.

أنهى «دازاي» رواية «الشمس الغاربة» في تموز 1947. وبسرعة تدهورت صحته. كان يسعل ويبصق دماً ويعاني من الأرق الشديد ويشرب أكثر من أي وقت مضى. وأثناء ذلك الخريف تحولت شقة «تومي» إلى مشغل حقيقي لدازاي. كانت تومي بالنسبة إليه الممرضة والسكرتيرة والصاحبة الحقيقية حتى النّهاية. وفي نهاية تشرين الثاني وضعت تومي بنتاً. وبناء على طلب أخيها اعترف «دازاي» بالطفلة. وعندما نشر «الشمس الغاربة»، التي أصبحت من أروج الكتب وأكثرها مبيعاً، أضاف إلى شهرته شهرة أخرى على الرّغم من تحفظات كتّاب معروفين تابعوا موقفاً قديماً يحكم على «دازاي» بأنه مؤلف طائش وبلا معنى. وفي آذار سنة 1948 نشر قصة «نرجسية وسجائر»، التي تُعتبر هجوماً حاداً على «شيكا ـ ناويا» الذي كان يتربع على قمة المؤسسة الأدبية اليابانية. وفي أيار نشر قصة «كرزات». وعندما انتهى من هذه الرواية: «سقوط رجل» [الكلمة التي يستخدمها دازاي هي «إنسان»: أي الترجمة الأقرب هي «سقوط إنسان». ومع ذلك أبقينا على رجل]. شرع في كتابة ما كان يجب أن يكون روايته الأخيرة غير المنجزة: «ولد جيد».

وفي ليلة الثالث عشر من أيار سنة 1948 قذف «دازاي» وتومي نفسيهما إلى مياه قناة «تاما ـ غاوا».

ولم يُعثر على الجثتين إلاّ في التاسع عشر من حزيران (عيد ميلاد «دازاي» التاسع والثلاثين).

تمهيد

رأيت لهذا الكائن ثلاث صور.

تعود الأولى إلى عهد الصبا. إنّها صورة طفل في حوالي العاشرة من عمره إذا لم نخطئ التقدير. يقف على طرف حوض مياه في الحديقة وقد أحاطت به عدة فتيات. (أتصور أنهن شقيقاته الأكبر منه أو الأصغر، وبنات عمه اللواتي يكبرنه أو يصغرنه) يلبس «هاكاما»[1]، ذات تحزيزات عريضة، ويستدير بثلاثة أرباع رأسه نحو اليسار وعلى شفتيه ابتسامةٌ قبيحة. قبيحة؟ ومع ذلك، عندما كان بعض النّاس الذين تنقصهم رهافة الروح (أعني انعدام الإحساس بالجمال والقبح) يبادره بهذا الإطراء الكيّس اللامبالي: «ولد لطيف، أليس كذلك؟» فالأمر لم يكن بلا معنى تماماً، لأن وجه هذا الطفل المبتسم لا يفتقر إلى بعض اللّطافة. لكن لا أدري لو أن هناك شخصاً له خبرة بسيطة في الحكم على الجمال والقبح، لا يقول من النظرة الأولى عابساً: «أوه! يا للطفل المقيت!» ثم يرمي الصورة بعيداً عنه بالحركة ذاتها التي يدفع بها دودة.

والحق أننا كلّما أطلنا النظر إلى ابتسامة الولد هذه، انتابنا إحساس مزعج وغير مريح أبداً. في العمق، لم تكن ابتسامةً. وهذا الطفل

---

(1) سروال واسع ذو طيات حادة يشبه التنورة النسائية ويُرتدى عادة فوق الجلباب أو كما يقال باليابانية الكيمونو. هو جزء من اللّباس الياباني التقليدي الذي اختفى تماماً بعد انفتاح اليابان على العالم الحديث.

لا يبتسم أبداً: فقبضتاه المشدودتان دليل ذلك. والمرءُ لا يشدُّ قبضتيه عندما يبتسم. إنه قرد. وابتسامته ابتسامة قرد. على وجهه لا نرى سوى تجاعيد قبيحة. «الطفل الملي بالتجاعيد»، هكذا كانوا يرغبون بتسميته. وإلى ذلك، كانت الصورة صورة كائن غريب سيء الأخلاق على أكثر من صعيد، وتعبيرها يثير التقزز والاشمئزاز. لم أرَ في حياتي أبداً، ولحد الآن، طفلاً له هكذا تعابير متميزة.

أما الصورة الثانية، فتمثل أيضاً وجهاً غريباً يثير الدّهشة. إنّها صورة طالب لا ندري، بالضبط، أهو طالب جامعة أم طالب مدرسة. وأياً كان الأمر، فهو طفل رائع الجمال. غير أننا، ولمرة أخرى، نُدهش إذ لا نشعر بأنه كائن حي. يرتدي بزة طالب وعلى صدره جيب صغير يظهر منه منديل أبيض. ويجلس على كرسي خيزران مضموم القدمين. في هذه الصورة أيضاً يبتسم، لكن ليست ابتسامة قرد مليء بالتجاعيد هذه المرة، بل ابتسامة باهتة أُعدِّت بمهارة، غير أنها تختلف، بشكل من الأشكال، عن الابتسامة العادية. أتراها تنمُّ عن فقدان الحيوية وتكشف آثار محن الوجود؟ كلاّ، فالأمر لا يتعلق بانطباع واضح ودقيق هكذا؛ تستدعي بالأحرى لا خفةَ طائر، بل خفة ريش أو خفة وبر، خفة ورقة: يبتسم. باختصار، يترك انطباعاً بأنه كائن مزيف تماماً. لا نجد عنده التكلّف والغرور والإدعاء ولا حتى الغنج والدلال. ومع ذلك، إذا حدّقنا إليه كطالب وسيم الشكل، فإنه يترك انطباعاً مقيتاً ومزعجاً. لم أر في حياتي، ولحدّ الآن، شاباً ذا جمال غريب هكذا.

أما الصورة الثالثة، فهي الأشدّ تميزاً وغرابة من بين هذه الصور الثلاث، إذ يستحيل تحديد عمر الشخص تماماً. فعلائم الشيب بدأت تخط شعر الرأس بشكل خفيف. وفي زاوية غرفة وسخة وموحشة (داخل الصورة تتداعى الجدران في ثلاثة مواضع) يجلس باسطاً يديه

فوق موقد جمر. هذه المرّة لا يبتسم، ولا تعبير له، يُخيل إلينا ونحن نراه جالساً باسط اليدين فوق المجمر الصغير، أن المنية ستوافيه. صورة مزعجة تدفع إلى التشاؤم. وهذا ليس كلّ شيء. فالوجه قريب ومكبَّر جداً، لحدّ أنني تمكنت من قراءة قسماته بدقة. الجبين عادي. تجاعيد الجبين عادية. الحواجب عادية. الأنف، الفم، الذقن، جميعها عادية. ماذا! أليس فوق هذا الوجه أي تعبير إذاً؟ لا تعبير يخطر لكَ؟ ليست هناك أية سمة بارزة. أنظرُ إلى هذه الصورة، لكن عيني ترفضان رؤيتها. لقد نسيت هذا الوجه. أتذكر حيطان الغرفة وموقد الجمر الصغير، أما ملامح هذه الشخصية فقد تبخّرت بهدوءٍ مثل النّدى. عبثاً أحاول فلا أتذكرها. وجه لا يقول أي شيء في البورتريه. ولن يقول أي شيء حتى في رسم كاريكاتوري. أفتح العينين. حسناً، هل هو كذلك؟ لا أجد أية متعة حتى في تذكّره. وإذا ما بالغت قليلاً، فإن هذه الصورة لن تذكّرني بشيء حتى ولو وضعتها من جديد قدَّام عيني. ثم من الأفضل أن أشيح بناظري عنها، إذ تسبب لي الغضب والاستياء.

عندما نتحدث عن وجه ميت، نتوقع أن نجد فيه شيئاً من تعابيره السّابقة، وشيئاً من الانطباعات التي تركها لنا. أما هنا، يُخيّل للمرء أنه أمام رأس خشبي، رأس تمثال دون أي تعبير. مهما يكن، ودون الغوص بعيداً، فإن هذه الصورة تثير اقشعرار بدن من ينظر إليها وتضايقه تماماً. لم أر في حياتي أبداً، ولحد الآن، وجه إنسان بهذا القدر من الغرابة.

الدفتر الأوّل

عشت حياةً مليئةً بالخزي.

الحياة الإنسانية في نظري بلا أي هدف. ولدت في قرية في الشّمال الشرقي وكنت شاباً عندما رأيت قطاراً لأوّل مرّة. ثم عندما رأيت فوق المحطة جسراً من حيث ينزل النّاس ويصعدون، لم أفهم أنه أُقيم لعبور خطوط السكة الحديدة. وكنت أعتقد أن محيط المحطة مكان لهو وتسلية على الطريقة الأجنبية أُعِدَّ للنّاس المترفين فقط. والأكثر من ذلك، أنني فكرت هكذا لمدة طويلة. كان صعود الجسر ونزوله رياضة مميزة بالنسبة إلي. وهو الأمر الأكثر تسلية من بين استخدامات الطرق الحديدية. لكن فيما بعد، اكتشفت فجأة أن لا هدف من ذلك سوى عبور الخطوط الحديدية.

وهذا ما حدث لي أثناء طفولتي عندما رأيت داخل كتاب مصوّر طريقاً حديدية تحت الأرض، إذ لم أتبين الفائدة منها. وقلت إن الانطلاق في سيارة تحت الأرض بدل الانطلاق في سيارة فوق الأرض، هو ببساطة تسلية أكثر أصالة.

منذ الطفولة كنت ضعيف البنية. فغالباً ما أبقى في السرير وأنا مقتنع بأن الشراشف وأغطية الوسائد وحاميات الأقدام زينة بلا فائدة. ولكن حينما بلغت سن العشرين أدركت أنها، وخلافاً لما كانت أظن، أشياء ذات فائدة. وقتها انتابني شعور سوداوي لاعتقادي بأن الحياة الإنسانية تابعة لمثل هذه الأشياء الوضيعة.

إضافة إلى ذلك، لم أكن أعرف ما معنى أن يجوع المرء. هذا لا يعني أنني ترعرعت في بيت لا يهتم بالمسكن أو بالمأكل أو باللّباس، وإلاّ فستكون حماقة. لكن كنت أجهل تماماً الإحساس بالجوع. قد يبدو غريباً أن أتكلم هكذا، ولكن كان يمكن أن أجوع: ليست لهذا الأمر أية أهمية في نظري. عندما كنت أعود من المدرسة أو من الثانوية يقول لي النّاس المحيطون بي: «لا بدَّ أنَّك جائع. فنحن نتذكر جيداً أننا كنّا نتضور جوعاً لدى العودة من المدرسة. ألا تريد فطيرة فاصولياء حلوة؟ ألا تريد قطعة بسكويت، أو قطعة خبز؟»، ويدورون حولي منهمكين، فأتمتم بمكر الطفل: «إنني جائع»، وأملأ فمي بفطائر الفاصولياء المحلاة. في الواقع لم يكن لدي أدنى فكرة عن الإحساس بالمعدة الخاوية.

ولأنني أُعَامَلُ هكذا، كنت آكل كثيراً بشكل طبيعي. لكن لا أتذكر أنني تناولت طعامي بدافع الجوع. كنت آكل أشياء معروفة بندرتها. كنت آكل أشياء معروفة بمستواها الممتاز. أضف إلى أنني كنت أرغم نفسي، خارج المنزل، على تناول كلّ ما يقدَّم لي.

كان الجلوس على المائدة من أصعب اللّحظات في طفولتي. وفي البيت الذي نسكنه كان يعيش عشرة أشخاص. الطاولات الصغيرة الفردية منسّقة على صفين. وبما أنني كنت الأصغر سناً، فمن الطبيعي أن يكون لي المكان الأخير. كانت الغرفة التي نتناول فيها الطعام موحشة مظلمة. في موعد الغداء، كانت العائلة المكوّنة من عشرة أشخاص تقريباً، تأكل بصمت. ولذا كنت أشعر بالبرد يتسلل إلى ظهري. ثمّ لأن بيتنا يحافظ على عادات الأقاليم، فقد كانت الأغذية المضافة إلى الرز تقليدية ومألوفة. الأطعمة النادرة، الأطعمة الفاخرة، كنت أجهلها ـ وبالتالي لا أستطيع اشتهاءها ـ لدرجة أن اقتراب موعد

الطعام كان يفزعني أكثر فأكثر. جالساً في المكان الأخير داخل هذه الغرفة الموحشة المظلمة، ومرتعداً من البرد، كنت أرفع الطعام بلقيمات صغيرة إلى شفتي وأدفع بها متسائلاً: لماذا يأكل هؤلاء الأشخاص ثلاث مرّات في اليوم. والواقع، كانوا يأكلون بوجوه رصينة وجادة. لا بدَّ أن ذلك كان ضرباً من الطقوس الذي تقيمه العائلة مجتمعةً ثلاث مرّات يومياً، وفي أوقات محددة، داخل غرفة مظلمة، وحول موائد فردية مصفوفة بعناية. ثم حتى وإن لم تكن لديهم رغبة في الأكل، كانوا يلتهمون طعامهم دون أن يتلفظوا بكلمة واحدة. لا بدَّ أن ذلك ضرب من الصلاة للأرواح التي كانت ترتاد البيت... تلكم هي الأفكار التي كانت تراودني.

«إذا لم نأكل، نموت!». سئمت أذناي هذه العبارة المزعجة والمليئة بالتهديد. هذه الخرافة (ولا تزال خرافة لحد اليوم في نظري)، كانت تسبب لي القلق والخوف: «إذا لم نأكل، نموت! ولهذا يجب أن نعمل!». عبارات مماثلة يصعب عليَّ إدراكها وفهمها. غامضةٌ، لكنها تبدو لي في أعلى درجة من درجات التهديد.

لم أكن أفهم أبداً لماذا لدى النَّاس شغلٌ ما، مهنة ما. مفهومي للسعادة ومفهوم الآخرين لها يتناقضان لدرجةٍ أكابدُ فيها ضيقاً يجعلني أتقلب في فراشي ليلاً دون توقف، أتأوه، أصير شبه مجنون. حقاً، لم أكن سعيداً؟ منذ طفولتي قيل لي مراراً بأنني كائن سعيد. ومع ذلك، كنت دوماً أعاني من آلام جهنمية والنَّاس الذين يزعمون بأنني سعيد، كانوا أكثر سعادة مني بكثير.

عشر نكبات تكدست فوق كاهلي. لكنَّ عبء واحدة من بينها، أَلَمْ تتحمله بتمامه صديقتي التي كلّفها حياتها؟.

في النهاية لا أدري. لم أحـزر قطعـاً طبيعـة ودرجـة آلام الـصديقة. فالألم الحقيقي كان في القدرة على اتخاذ قرار (بالانتحار)، بعد تناول وجبة من الطعام. لعلّه الألم الأكثر حـدّةً، الألمُ الـذي يتجـاوز آلامـي العشرة التي تكلمت عليها. لعلّـه الألم الـذي يـشبه عـذاباً واحـداً مـن عـذابات الجحـيم الأكثـر عمقـاً[1]. لا أدري. لكـن أن لا نمـوتَ بعـد محاولة انتحار، وأن نصبح مجانين، وأن نتابع النقاش حول الأحـزاب السياسية، وأن لا نغرق في اليأس، وأن نتابع الكفاح من أجل الحيـاة، أليس كلُّ هذا بأشدّ فظاعة؟ على الرَّغم من أنني كنت أنانياً ــ والأكثـر من ذلك، أن أجد الأمـر طبيعيـاً ـ لم يوجـه أحـدٌ لي ملاحظـة بـصدد ذلك ولم يُشتبه بي. هذه هي السعادة والنّاس جميعهم هكـذا. ثمَّ إنـني أجهل تماماً فيما إذا كانت هذه هي المثالية... عندما استيقظ بعـد ليلـة من النّوم العميق أتساءل بماذا يتعلق الأمر؟ بالمال؟ احتمـالٌ ضـعيف. أن يعيش النّاس كي يأكلوا، قيل لي هذا وأميـل إلى تـصديقه. لكـن أن يعيشوا من أجل امتلاك المال، فهذا ما لم تعرف سماعـه أذنـاي. ومـع ذلك فالأمر حـسبِ الحـالات... ولكـن هـذا أيـضاً لا أفهمـه. وكلّمـا فكرت أكثر، يقلّ فهمي. إنني الوحيد الذي يختلف عن الآخرين. بـين صديقتي وبيني، كان الحديث شبه مستحيل. مـاذا كـان بمقـدوري أن أقول لها؟ لا أعرف.

ولهذا أصبحت مهرِّجاً، هُزأةً، بهلولاً...

كان ذلك آخر طلب عاطفي أتوجه به إلى النّاس. وعلى الـرَّغم مـن أنني أخشاهم إلى أقصى الحدود، فلا أظن بأنني جـاهز لاحتمـال كـلٍّ

---

(1) الجهنم البوذية متعددة، وفي الدرك الأسفل منها توجد جهنم خاصـة حيـث ينال داخلُها أقصى أنواع العذاب.

ما يصدر عنهم. ثم لا يزال هناك خيط يربطني، وعبر بهلالاتي، بأشباهي ربطاً بسيطاً. خارجياً لم تكن الابتسامة تفارق وجهي؛ لكن داخلياً كان اليأس ولا شيء غيره. وكي لا أظهر هذا التضاد، كان يجب أن أحافظ، وبعرق بارد، على توازن تسنده شعرة فقط.

طفلاً، لم أستطع اكتشاف أي هم من هموم أفراد عائلتي ولا أية فكرة من أفكارهم. ولما كنت غير قادرٍ على تحمل ملامحهم المتجهمة القاسية، صرت بهلولاً خبيراً. باختصار، لم أكن أستطيع، وعلى الرَّغم مني، نطق كلمة واحدة صادقة.

عندما نشاهد من تلك المرحلة صوراً تظهرني مع أفراد العائلة، نجد الآخرين بوجوهٍ رصينة وجدية، بينما أنا، أنا الوحيد، الذي تشوّه وجهه ابتسامة غريبة. إنّه ضرب من البهللة الساذجة المأساوية.

في الأحاديث مع الأقرباء، لم أصل مرّة واحدة إلى جواب أو نقاش. وكنت أعتبر ذلك توبيخاً بسيطاً، لكن ينهال عليٍّ انهيال الصاعقة ليغيظني. الجواب، النقاش، وحتى التوبيخات، كل هذا هو التعبير عمّا يسميه النّاس تقليدياً بـ «الحقيقة»، لكن ليست لي طاقة على اعتياد هذه الحقيقة والتعامل معها. فأنا مسكون بفكرة أنني ربّما لستُ مخلوقاً للعيش مع الآخرين!.

أيضاً، لم يكن بمقدوري أن أتابع مناظرات خطابية وأدافع عن آرائي الخاصة. وعندما كنتُ أُوبَّخ، كان يُخيَّل لي أنني ارتكبت خطأ فادحاً. على أية حال، كنت أتلقى هذه الحملات بصمت ودون كلمة واحدة، لكن أشعر في الداخل بمخاوف هائلة.

ولا أعرف إذا كان هناك مَنْ يظهرون رباطة جأش عندما يُنْقَدون، وعندما يُثارون. لكنِ أنا، أرى في وجهِ غاضبٍ طَبْعاً أسوأ من طَبْعِ

أسدٍ، أو طبع تمساح، أو طبع تنين، أو طبع حيوانٍ أكثر هولاً. هذه الطبيعة تكون في العادة خفيفة، لكنَّ مناسبةً واحدة تكفي للكشف عنها. هكذا فالثور الذي يبدو أنه نائم في المرعى بهدوء، لا يتوانى عن تحريك ذيله بقوةٍ ليسوط به نُعْرَةً ويقتلها إذا تلسعه في بطنه. عندما أرى طبيعة الإنسان الحقيقية المرعبة تخلع قناعها، أرتجف من الخوف لحد أن شعر رأسي ينتصب. وإلى ذلك، عندما أفكر بأن هذه الطبيعة لا بدَّ أن تكون إحدى خصال الإنسان، أصاب باليأس تقريباً.

كان يمكن أن أفعل أي شيء، فهدفي هو الإضحاك، لكن ربّما لم يكن الآخرون غير مبالين بما أفعل، مع أنني كنت على هامش حياتهم. وفي الأحوال جميعها، كان لا ينبغي جرح أنظارهم. «لستُ أنا! إنّها الريح.. .إنّها السماء..». لم أعد مشغولاً إلاّ بمثل هذه الأفكار. بدعاباتي كنت أُضْحِكُ أسرتي وكذلك الخدم والخادمات (الأكثر غموضاً ورهبة بالنسبة لي من الأسرة): بهلولٌ، مهرجٌ يائس يهدف إلى لفت أنظار النّاس.

في صيف من الصيوف، كنت أتنزه على الشرفة وقد ارتديت كنزة حمراء صوفية تحت ملابس صيفية خفيفة. أضحكت البيت بالكامل. وعندما شاهدني أخي البكر الذي لا يتبسم إطلاقاً، قال بكل ما يستطيع من مودة:

ـ يوتشان[1]، الفصل ليس فصل هذا!.

كيف، ماذا!. إذا كنتُ وفي عزّ الصيف أتنزّه بكنزة صوفية، فليس لأنني معتوه لدرجةٍ لا أميز فيها بين البرد والحرارة. كنت أراقب من فتحة كُمّ ثوبي الخفيف أختي الشّابة وهي تضع طِماقاً حول ساقيها! الأمر الذي يعادل لبسي لكنزة صوفية.

---

(1) بطل هذه الرواية اسمه «يوزو». يُنادى اختصاراً هنا بـ «يو». واللاحقة «تشان» تضاف عادة إلى أسماء الأطفال وأسماء الفتيات تلطفاً وتدليلاً.

كانت لأبي مشاريع كبرى في طوكيو، وكان له أيضاً بيت كبير هناك في «ساكورا ـ كيتشو» بحي «أوينو» الشعبي، حيث يقضي قسماً كبيراً من كل شهر. وأثناء عودته كان يحمل الكثير من الهدايا لأفراد عائلته وحتى لأصدقائه. وهذه متعة كبيرة بالنسبة إليه. في عشية إحدى سفراته، جمع أولاده في الصالون وراح يسأل، مبتسماً، كلاً منهم ماذا يريد لدى عودته القادمة. ثم يسجّل الأجوبة على دفتر صغير. ما أروعَ رؤيةَ مودة هذا الأب لأطفاله.

ـ وأنتَ، يوزو؟ سألني.

تمتمت ببعض كلمات مبهمة، وهذا كلّ شيء.

عندما يسألني عما يمكن أن يبعث السرور في نفسي، لا أعود أرغب شيئاً. لا يهم، أيُّ شيءٍ. سيّان عندي كلّ شيء. لم أكن أرى شيئاً أرغبه بشكل خاص. هذا كلّ ما كان يخطر لي. من جهة أخرى لم أكن قادراً على رفض ما يقدَّم لي، حتى وإن كان لا يناسب ذوقي. وعن شيء لا يعجبني، قد لا أقول: هذا لا أريده. شيء ما أحبه وأقبله مرتعشاً كما لو أنني سرقته، يترك في داخلي طعم المرارة. هكذا كنت ضحية عواطف ومشاعر لا أفهمها ولا أستطيع التعبير عنها. بكلمات مختلفة، لم تكن لي قدرة الاختيار بين شيئين. وهنا، كما أعتقد، توجد حالة من حالات طبيعتي التي ستكون فيما بعد أحد الأسباب الرئيسية لـ «حياةٍ مليئةٍ بالخزي والعار».

كنت أصمت، أرتبك ولا أرتاح، الأمر الذي يعكّر مزاج أبي قليلاً:

ـ أم لعلك تريد كتاباً؟... في دكان قريب من معبد «أساكوسا»[1]، توجد رؤوس أُسودٍ من أجل رقصة الأسد في كانون الثاني، يعتمرها الأطفال للتسلية واللعب. ألا ترغب بأن أشتري لك واحدة منها على مقاسك؟.

---

(1) معبد كبير في وسط طوكيو، شعبي جداً ومكان سياحي مشهور. يقام في حرمه معرض دائم للأشياء اليابانية التقليدية.

عنـدما أسمـع: «ألا ترغـب بـ...» أفهـم أن الكـلام موجّـه إليّ. ولا أجد جواباً، أي جواب مسلٍ. أَخْفَقَ المهرجُ ـ البهلول تماماً!.

فيقول أخي البكر بوجهه الرصين.

ـ كتاب. هذا قد يكون جيداً، على ما أظن.

ـ أتظن ذلك؟.

خائباً، لم يُسجِّل أبي أيَّ شيء في دفتره الذي أغلقه بضربة خاطفة.

يا له من إخفاق! لقد أغضبت أبي وسوف يثأر ثأراً شديداً بالتأكيـد. ماذا يمكـن أن أفعـل الآن كـي أمحـو هـذا؟ فتلـك الليلـة لم يفـارقني الارتجاف داخل السرير. نهضت بهـدوء وذهبـت إلى الـصالون لأفـتح درج الطاولة حيـث أن أبي لا بـدَّ، ومنـذ لحظـات قليلـة، قـد وضـع الدفتر الصغير الذي ملأه بأشياء وأشياء. أخرجت الدفتر. ورحت اقلّب صفحاته باضطراب. وجـدت مكـان الهـدايا. أخـذت قلـم الرصـاص الصغير الموجود مع الدفتر وغمَّـست رأسـه بفمـي ثم كتبـت: «رقـصة الأسد». وبعدها ذهبـت للنـوم. لم تكـن لي أدنى رغبـة بـرأس الأسـد هذا، بل العكس. لكن لا لشيء إلاّ من أجل تغيير مزاج أبي، غـامرتُ دون ترددٍ بالتسلل خفية إلى الصالون في عزّ اللّيل.

والواقع، إن قرار الدقيقة الأخيرة هذا توِّج بنجاح كبير. فسرعان مـا عاد أبي من طوكيو. ومن غرفة الأطفال حيـث كنـت موجـوداً سمعتـه يقول لأمي بصوت عالٍ:

ـ عند بائع الألعاب، في حي دكاكين المعبد، فتحـت هـذا الـدفتر الصغير ورأيت مكتوباً هنا: «رقصة الأسد». هذه ليست كتابتي، وهـذا ليس خطي. أوه! لكن... مطأطئ الرأس تخطر له فكرة:

ـ هذا، إنها عفرتة يوزو! هذا الأبله، عندما سألته ماذا يريد ضحك بغباوة ولم يجب. ثم لم يستطع مقاومة رغبته في اقتناء الأسد. يا للشيطان لِمَ هذا الولد نزوي متقلب الأطوار هكذا. يتظاهر بأنه لا يعرف ماذا يريد، ثم يكتب ذلك بدقة ووضوح. إذا كانت لديه رغبة قوية لهذا الحد بالشيء، فما عليه إلاّ قول ذلك! ضحكتُ كثيراً قدّام حانوت بائع الألعاب. قولي لـ «يوزو» أن يأتي إلى هنا حالاً.

من جهتي، كنت قد جمعت الخدم والخادمات في الغرفة الأوروبية، وطلبت من خادمٍ أن يقرع ملامس البيانو. تنافرُ أصوات شيطاني عجيب كان يصدر عن ذلك (كنا في الرّيف جميعاً. وكان العدد كاملاً). وأنا، بانضمامي إلى هذا اللّحن الحر المرتجل، أخذت أرقص رقصة هندية جعلت الحاضرين جميعاً ينفجرون بالضحك. في هذا الرقص الهندي صوّرني معاون إخوتي بآلة كان يستخدمها. وعند سحب هذه الصورة، كان يُرى من شق كلسوني (المفصّل على شكل وشاح قطني) عضوٌ ذَكَرِيٌّ صغير، الأمر الذي أثار في البيت قهقهات كبرى أيضاً. كان في هذا نجاح لم أتوقعه أبداً.

في كلٍّ شهر كنت أستلم من طوكيو الأعداد الأخيرة لأكثر من عشر مجلات للأطفال، إضافة إلى الكثير من الكتب المتنوعة وأقرأ خفية كلَّ شيء. حكايات الدكتور «ميتشارا ـ كوتشارا» وحكايات الدكتور «ناجا ـ مونجا» كانت أليفة جداً بالنسبة إليَّ. أما حكايات الأشباح، والقصص الهزلية، ونوادر «إيدو» [طوكيو حالياً. م] وجميع الأشياء المماثلة، فكنت أعلمها بشكل متوسط ومقبول. ثم أعيد قصَّ هذه الحكايات الغريبة بشكل جدي، الأمر الذي كان يثير ضحك الجميع.

لكن ماذا عن المدرسة في كلٍّ هذا؟.

في هذه المرحلة باشرنا بـ«إظهار الاحترام» لي. فكرةُ أن تكون محترماً كانت ترعبني للغاية. أن أخدع شخصاً يَقْرُبني جداً، ثم أن يكشفني شخصٌ آخر فيما بعد، يعرف كل شيء ويستطيع كلَّ شيء، وأن أكون وقتها محلَّ الازدراء، وأعاني خزياً أسوأ من الموت... تلكم هي الفكرة التي كانت لدي عن حالة كائن «محترم». أخدع شخصاً (فيما أنا محترم)، ثم يأتي آخر يعرف بالأمر ويخبر ذلك الشخص. آنذاك سيغضب المخدوع، بعد معرفته بالخدعة، وفي النهاية كيف سينتقم؟.

ولدت لعائلة على قدر من الغنى، وكانت، كما يقال بعبارات شعبية، «ذات باع طويل» تحديداً، الأمر الذي كان يجعلني محترماً في المدرسة. كنت منذ الطفولة مِسقاماً. أبقى في السرير أسبوعاً، أسبوعين، لا بل سنة دراسية تقريباً. حينها لا أذهب إلى المدرسة. وعندما أتماثل للشفاء، أذهب إلى المدرسة بـ «جينريكيشا»[1].

في امتحان نهاية السنة، كان يُدوَّنُ اسمي قبل أي تلميذ آخر في الصف كـ: «أوفى التزامات الدراسة». لكن حتى عندما أكون بصحة جيدة، لا أدرس أبداً. في المدرسة وأثناء ساعات الدرس، كنت أرسم رسوماً كاريكاتورية أشرح مضمونها لزملائي خلال الاستراحة وأُضحكهم. بالنسبة إلى الإنشاء، لم أكن أكتب سوى القصص الهزلية الساخرة. فيوبخني المعلم لكن لا أبالي. والواقع، كنت أعلم أنه يتمتع بها دون أن يقول ذلك. ذات يوم، أعطيته حكايةَ غلطةٍ، أو سوءِ فهم، كتبتها بطريقة مؤثرة: كنت في قطار ذاهب إلى طوكيو تقتادني

(1) عربة خشبية عالية وخفيفة يجرّها رجل، ولا تزال منتشرة في بعض بلدان آسيا الفقيرة.

أمي كالعادة. أخذتني رغبةٌ في التبول، فتبولت في مبصقة[1] الرواق. مع ذلك، لم تفتني ملاحظة الغاية من وجود هذه المباصق، وأنا في الطريق إلى طوكيو، لكنني تصرفت ببراءة الأطفال. كنت متأكداً بأن المعلم سوف يضحك. عندما انسلٌ من غرفة الأساتذة تبعته بهدوء. وحالما ترك غرفة الدرسة سلٌ من حزمة أوراق الإنشاء الورقة التي قدمتها إليه وبدأ بقراءتها وهو يتمشى في الرواق. كان الصّف يضحك. هاهو قد دخل إلى غرفة الأساتذة. هل أنهى القراءة؟ بوجه أحمر تماماً، كان يضحك مقهقهاً وفي الوقت نفسه يُقرئ ورقتي للأساتذة جميعهم. كنت سعيداً جداً.

لقد كنتُ ذا حظوة كعفريت. فبعد أن كنت موضع تقدير واحترام، نجحت في التخلص من هذا الاحترام. وفي دفتر المراسلة مع الوالدين كان هناك عشر علامات كحدّ أقصى للمواد جميعها. أما بالنسبة للسلوك وحده، فكنت أحصل تارة على ست درجات وتارة على سبع، الأمر الذي كان يُضحك البيتَ بالكامل.

غير أن طبيعتي الحقيقية كانت بشكل عام على النقيض من دور هذا العفريت الصغير. في ذلك العهد، استغل الخدم براءتي وعلّموني أشياء سيئة. وأعتقد اليوم أن الأمر آنذاك يتعلق بأبشع الجرائم وأكثرها خسة، بأقبح الجرائم التي يمكن أن يرتكبها البشر. ومع ذلك، كنتُ أتحملهم. ولو كنت معتاداً على قول الحقيقة دون خوف، لربّما كنت وشيتُ بهم لأبي أو لأمي، لكن لا أستطيع أن أقول لهما أنني أفهم كلَّ شيء. لم أكن آمل بالوصول إلى نتيجة عن طريق الشكوى. فلن

---

(1) مكان للبصاق. في أروقة القطارات اليابانية القديمة كانت توجد أمكنة خاصة للبصاق!! وقد اختفت اليوم من أروقة القطارات الحديثة، بعد تقدّم اليابان!!.

[illegible] من أي شيء شكواي لأبي أو لأمي أو لأي شخص من محيطي، أو للحكومة. وفي النهاية لا أعلم إن كان التوبيخ البسيط الذي يوجهه شخص ذو خبرة عظيمة بأشياء هذا العالم، لا يؤدي إلى فاعلية أكثر.

أعلم أنني، وإلى حد ما، كنت على خطأ. لكن كان من العبث أن أشكو في نهاية المطاف. كنت أخفي الحقيقة وأحتمل قدري. وبدا لي أنه لا خيار إلا الاستمرار في دور المهرج البهلول.

«ماذا؟ تعترف بحذرك من الآخرين؟ نعم؟ منذ متى أصبحت مسيحياً؟!»، قد يقول لي إنسان ساخر. لكن أعتقد أن الحذر لا يتعلق قطعاً بالمجال الديني في الدرجة الأولى. أليس صحيحاً أن البشر (بمن فيهم الساخرون) لا يفكرون بيهوذا أو بآخر عندما يحذر بعضُهم بعضاً؟ يذكرني هذا بشيء حدث أيام شبابي: عضو مشهور من الحزب الذي ينتمي إليه أبي، قدم إلى مدينتنا لإلقاء خطاب. اصطحبني خدم البيت إلى المسرح للاستماع إليه. وكانت القاعة مليئة، وفيها تُرى وجوه أصدقاء أبي في المدينة. تصفيق حاد وبلا توقف.

انتهى الخطاب. وأخذ الحاضرون جماعاتٍ طريق العودة إلى البيت في ليلة مثلجة. ثم بدؤوا تعليقاتهم الساخرة على الاجتماع بعبارات مبتذلة. من بينهم كان يُسمع صوت رجل مقرّب جداً إلى أبي. وهو الذي افتتح التعليقات بكلام أرعن. فخطاب الرجل المشهور: حشوٌ وخليط بلا أي معنى. هو ذا ما قاله بنبرة تجاور الغضب من كان يسميهم أبي «رجال مِنْ/ مع رأينا». وعندما وصلنا إلى البيت دخل هؤلاء السّادة إلى الصالون وقالوا لأبي إن اجتماع هذا المساء كان نجاحاً باهراً. وهنؤوه منبسطي الأسارير. حتى الخدم، عندما سألتهم أمي عن الاجتماع، قالوا إنه ممتع ومثير. مع أنهم في طريق العودة اتفقوا على أن هذا الاجتماع تافه ومثير للضجر مثل أي اجتماع آخر تلقى فيه الخطابات.

هذا مثال بسيط ومتواضع. وأعتقد أن الحياة مليئة بأمثلة الرياء المحض، الرياء الفاقع أمام العيون، وبأمثلة الخداع والغش المتبادل التي لا تؤذي أحداً والتي لا ينتبه إليها أحد. بالنسبة إليّ، لا أهمية لهذا الخداع المتبادل. فأنا من الصّباح إلى المساء أخدع الجميع بدعاباتي. ولا أهتم قطعاً بالأخلاق وبما يُسمى في كتب التربية: الاستقامة، أو بما تريدون مما يشبه ذلك. إن الذين يتبادلون الغش والخداع يعيشون حياة نقية وواضحة، كما أرى، أما الذين يتظاهرون بالثقة الذاتية كي يستطيعوا الحياة، فهم ألغاز وأحجيات. لم يعلمني النّاس شيئاً حول هذا اللغز الغريب. لو أنني فهمت هذا فقط، لما خشيتُ أشباهي إلى هذا الحد ولما أطلقت العنان بيأسٍ لتهريجاتي. كان ذلك سينتهي دون أن أكون، وبسب معارضتي الحياة، ضحية آلام جهنمية خلال ليالٍ بكاملها. باختصار، عندما لم أشِ لأحدٍ بالجرائم البشعة التي ارتكبها خدمنا ذكوراً وإناثاً، فليس ذلك بسبب حذري من الآخرين، أو بسب الأفكار المسيحية، بل لأن العالم أغلق قوقعة الثقة ورائي بدقة وإحكام، ولأن أبي وأمي بذاتهما، كانا يظهران لي غامضين في بعض الأحيان. ثم، وطالما لم أشِ بأحد إطلاقاً، كنت أحذر كثيراً من الأشياء في عزلتي وبفضل أنوثتي. لهذا سوف أُستَغَلُّ في جميع الأحوال خلال السنوات التالية. وبسبب هذه الطبيعة الأنثوية بقيت إنساناً يجهل أسرار الحب.

الدفتر الثاني

عشرون شجرة كرز جبلي، على الأقل، تصطف بقدودها الجميلة وجذوعها السوداء قرب الشاطئ. وعند بداية العام الدراسي الجديد، تصير أوراقها الصهباء اللّزجة خلفية جميلة للبحر الأخضر. ثم تتفتح الأزهار بكلّ بهائها، وعندما يحين وقت أفولها وتسقط سقوط الثلج، تتناثر تويجاتها فوق مياه البحر شبيهةً ببقايا هائمة تقذفها الأمواج إلى الشاطئ. كان هذا الشاطئ الرملي بأشجار الكرز تلك يستخدم كما هو حديقة للمدرسة الواقعة في الشمال الشرقي والتي دخلتها مطمئناً بفضل مساعدة لا أعرف من أين جاءت، على الرّغم من أنني لم أنجح في الامتحان. وفوق شعار قبعة المدرسة النظامية حُفِرَتْ زهرة كرز، كما حفرت فوق أزرار اللباس النظامي.

كان بيتنا، كبيت أحد أقربائنا البعيدين، قريباً جداً من المدرسة، ولهذا أيضاً، إضافة إلى جوار البحر وأشجار الكرز، اختار لي أبي هذه المدرسة. بعد دخولي إليها ونظراً لقربي منها تماماً، كنت أهرع إلى هناك عندما أسمع جرس الاجتماع يقرع من أجل تحية الصباح[1]. كنتُ تلميذاً كسولاً إلى حد ما. وعلى الرَّغم من هذا استطعت، يوماً بعد يوم، وبفضل بهلالاتي، أن أكتسب الشعبية في صفي.

لأول مرة في حياتي وجدت مكاناً حيث الحياة أكثر هناء وجمالاً منها في البيت، مع أنني كنتُ أغيب عنه في مناسبات عديدة.

---

(1) طقس من الطقوس المدرسية القصيرة، يُفتتح به اليوم الدراسي كلَّ صباح.

أعتقد أن تنكري بشخصية البهلول ـ المهرج في تلك المرحلة كان قد بدأ يلائمني تدريجياً بحيث لم أعد أبذل جهداً كبيراً للعب بالنّاس. لكن أليس ذلك بسبب أنه بين عرض أمام الأهل أو أمام الآخرين، وبين عرض في بيتنا أو في أرض غريبة، يوجد فرق صعوبة لا يمكن تجاوزه حتى بالنسبة لرجل عبقري، أو حتى بالنسبة لابن الله، يسوع المسيح؟.

بالنسبة إلى الممثل، لا يوجد مسرح أكثر فظاعة من بيته الخاص. فعندما يجلس، إضافة إلى الأهل، ستة أقارب في صف واحد داخل الغرفة، لا بدَّ أن يخفق ويضيع أيُّ نجم مهما كان. ومع ذلك، لعبت دوري في هذه الظروف ونلت قدراً جيداً من النجاح. بالنسبة إلى كوميدي مثلي راح يلعب دوره خارج البيت، كان الإخفاق مستحيلاً أو شبه مستحيل. الخوف الذي كان يسيطر عليَّ من الآخرين لم ينقص، وكان يسبب لي الانقباض في الصدر. ومع ذلك، كنت أستعيد هدوئي كي ألعب لعبتي. في قاعة الدرس، أُضْحِكُ الزملاء باستمرار. وكان الأستاذ يخفي فمه بيده كي يضحك عندما لا يكون التلاميذ في السّاحة وهو يتنهد متمتماً: «أي صفّ ممتاز!». وعندما أثرتُ عاصفة من الضحك الهيستيري، فإن ضابط التدريب[1] نفسه أطلق العنان لضحكه.

تماماً في الوقت الذي كنت قد بدأت فيه الاعتقاد بقدرتي على إخفاء طبيعتي الحقيقية، كُشِفَتُ مع أنني لم أكن أتوقع ذلك. والذي كشفني تلميذ لم يكن يتميز عن الآخرين. في الصف كان الأقل نشاطاً. له وجه منتفخٌ وضارب إلى الخضرة. يرتدي لباساً طويلاً وقديماً يبدو أنه كان لأبيه أو

---

(1) ضابط يشرف على التدريبات العسكرية (مدرب الفتوة).

لأخيه الأكبر: أكمام طويلة على موضة «شوتوكو»[1]. لم يكن يعرف شيئاً عن مواد البرنامج. تظهر عليه ملامح تلميذ متخلف عقلياً، لا يحضر التمارين الرياضية إلاّ كمتفرج. لذا لم يكن مدهشاً ألا أحترس من تلميذ مماثل.

في ذلك اليوم وأثناء درس التمارين الرياضية، كان هذا التلميذ (لم أكتب اسمه كاملاً، لكن أتذكر أنه يدعى «تاكيتشي» ينظر كعادته إلى الآخرين وهم يتدربون. كنا على العارضة الثابتة: بمهارة واحترام كنت أركز النظر في العارضة، أطلقت صرخة «إيه! هوب!» وقفزت ببساطة قفزة طويلة فسقطت على مؤخرتي في الرّمل. والواقع أنني كنت قد خططت لكل شيء. لذا انفجر الجميع بالضحك. ثم نهضت نافضاً الرّمل عن بنطالي. ومن الوراء صرخ بي «تاكيتشي» بصوت أجش:

ـ إنها خدعة! وقد قمت بذلك عمداً!.

ارتعدت. لم أكن أنتظر أن يكشفني «تاكيتشي» وأنا أتعمد الوقوع خطأً أثناء التمرين قدّام الجميع. بدا لي وأمام ناظري أن ألهبة الجحيم، قد غطت العالم بلحظة واحدة وهاهو يحترق. وبكل طاقة اليأس حبست صرخة جنوني.

ثم، ويوماً بعد يوم، أصبحت فريسةً للقلق والرعب. ظاهرياً، تابعت ممارسة دور البهلول ـ المهرج المسكين، وكنت أثير ضحك الجميع. لكن ودون إرادتي كانت تصدر عني تأوهات أليمة. فـ «تاكيتشي» سوف يكشف حيلي وسوف يروي ذلك لكل عابر بالتأكيد. عرق بارد يغمرُ وجهي وأنا أفكر هكذا. كان يبدو عليَّ الضياع. أجول بنظري هنا وهناك دون أن أرى.

---

(1) «شوتوكو ـ تايشي» (572 ـ 621)، رجل دولة معروف. وله صورة مشهورة حيث يحيط به ولداه: يرتدي الثلاثة ثياباً ذات أكمام طويلة جداً.

لو استطعت، لرحت أراقب «تاكيتشي» صباحاً وظهراً ومساءً خلال أربع أو ست ساعات، أبقى إلى جانبه، لا أتركه لحظة واحدة بحيث لا يقدر على إفشاء السرّ. وبينما ألتصق بخطواته وأتبعه، كنت أبذل ما في وسعي لإقناعه بأن بهلالاتي ليست متصنعة، بل هي فطرية وطبيعية، وراجياً أن أصبح صديقه الحميم إذا أمكن. لكن وطالما أن هذا الأمر مستحيل، فكرتُ دوماً أن لا حلّ آخر إلاّ أن أتمنى له الموت. ومع ذلك، لم يخطر لي أبداً أن أقتله كما قد يُظن. حتى ذلك الوقت من سيرة حياتي، خطرت لي رغبة أن أُقْتَلَ أكثر من مرة، لكن أن أقتل أحداً، فتلك فكرة لم تراودني على الإطلاق لا من قريب ولا من بعيد. ولمّا كنت في مواجهة خصم رهيب، لم أفكر إلاّ بإسعاده.

لتدجين «تاكيتشي» وترويضه، كنت أبادره كَذِباً بوجهٍ مسيحي تعلوه ابتسامةٌ عذبة. أستدير برأسي قليلاً، وألف كتفيه الصغيرتين برفق، ثم بصوت عذب ومعسول، كنت أحثّه مراراً على المجيء إلى بيتي. أما هو فكان يصمت شارد العنين. وذات يوم بعد انتهاء الدراسة (بالتأكيد بداية الصيف) بدأ سقوط أمطار غزيرة جداً. كان التلاميذ مضطربين، متضايقين لعدم قدرتهم على العودة إلى بيوتهم. لكن من جهتي، وبما أن بيتي كان قريباً من المدرسة، كنت على أهبة القفز خارجاً دون أية مبالاة، عندما لمحت «تاكيتشي» وحيداً قرب صندوق الأحذية: «هيا! سوف أعيرك مظلة»، وأمسكت بيده، يد «تاكيتشي» حزيناً، وسحبته ثم انطلقنا نهرول تحت المطر. لم ننجح فقط بجعل صاحبة البيت تجفف لنا ثيابنا الخارجية بل نجحت أنا أيضاً باستدراج «تاكيتشي» إلى غرفتي في الطابق الأول.

كان يعيش في هذا البيت عدد من الأشخاص: امرأة تجاوزت الخمسين، ثم فتاة تقارب الثلاثين وبلا زوج. لها قامة طويلة، تضع

نظارات وتبدو عليها ملامح السَّقم (يقال إنّها تزوجت، ثمَّ عادت إلى بيتها). كنت أناديها مثل الجميع بـ «الأخت الكبرى». ثم كانت هناك فتاة شابة اسمها «سي ـ تشان» خرجت لتوها من مدرسة الفتيات المجاورة ولم تكن تشبه «الأخت الكبرى»، لأنها قصيرة القامة وذات وجه مدوّر. لم تكن العائلة تتألف إلاّ من هؤلاء الأشخاص الثلاثة. في مخزن الطابق الأرضي، كانت هناك مجموعة من الأدوات المكتبية والرياضية. معظم إيرادات هذه العائلة كانت تأتي، على ما يبدو، من إيجار خمسة أو ستة بيوت ملاصقة كان الأب قد بناها وتركها لهن.

ـ قال «تاكيتشي» الذي بقي واقفاً: تؤلمني أذناي.

ـ لأنهما مبللتان بالمطر.

نظرت إلى أذنيه: في كلٍّ جهة التهابٌ متقيحٌ مرعب، ويكاد القيح يخرج من الصيوان.

ـ فظيع هذا! ولا بدَّ أنه يؤلمك جداً!.

اعتذرت وأنا أستخدم لهجة النساء:

ـ عفواً، أنا آسف لأنني اصطحبتك في هذا الجو الماطر.

نزلت من فوق إلى الطابق الأرضي حيث أخذت قليلاً من القطن والكحول. وطلبت من «تاكيتشي» أن يستلقي على الأرض. ثم وضعت رأسه على ركبتي وضمدت أذنيه بعناية. لم يبدُ على «تاكيتشي» أنه احترس من أية غاية خبيثة يمكن أن أخطط لها. قال ورأسه لا يزال على ركبتي:

ـ أنت، سوف تحبك جميع النساء بالتأكيد....

كانت هذه ملاطفة بريئة. مع ذلك، ودون أن يعني «تاكيتشي» هذا، فقد كانت نبوءةً شيطانية رهيبة أدركتها فيما بعد. يقال غالباً: «أنا

مجنون بفلانة». أو «هي مجنونة بي». هذه تعابير سوقية، تافهة مليئة بالغرور. ومهما كانت جدية اللحظة التي تُنْطَقُ فيها، فإنها حالما تخرج من الفم، يصير كلُّ شيء شاحباً وسخيفاً وينهار معبد الرومانسية بثانية واحدة. فلو أنه استعيض عن القول بشكل مبتذل «كم هو مؤلم أن يكون المرء محبوباً» بالكلام، كما في الأدب، على «الاضطراب الذي يرميكم إلى داخله الحب»، فإنّ معبد الكآبة لا ينهار وهذا رائع.

عندما أثنى عليَّ «تاكيتشي» بهذا الثناء الأحمق: «ستكون محبوباً»، وذلك كي يكافئني بعد تضميد أذنيه، علا الاحمرار وجهي وابتسمت، لكن لم أجب بشيء. ولم يكن هناك أي داع للابتسام. ومع ذلك استيقظت في داخلي ذكريات مبهمة.

أن أقول بأن الجوّ المريب الذي خلقته هذه الكلمات المبتذلة «أنا محبوب» يوقظ فيَّ ذكريات وذكريات، فذلك يعني تبجحاً بأفكار ليست أفضل من خطب المعلم الشاب الطويلة في «حكايات مضحكة»[1]. كان من المستبعد أن تكون لي ذكريات لعوبة أو دنيئة.

كان يسهل عليَّ فهم الطبع الأنثوي أكثر من الطبع الذكوري. لأن النساء كنّ أكثر عدداً من الرجال داخل الأسرة التي تقطن البيت. أضف إلى ذلك وجود عدد من الفتيات، ومن الخادمات «مجرمات حقيقيات!»، لدرجة أنه لا مبالغة في القول إنني منذ الطفولة ترعرعت وأنا ألعب مع الفتيات. لكن ذلك خلّف لي ذكرى أن أسير فوق طبقة رقيقة من الجليد. لم أعش إلا بصحبة النساء والفتيات. هكذا فقدتُ

---

(1) يتعلق الأمر بحكايات يقصها رواة شعبيون (حكواتي). ويعتمدون فيها على شخصيات منمذجة ومعروفة وبين هذه الشخصيات يُظهرون «المعلم الشاب» بمهر مثير للضحك والسخرية.

رؤيا الهدف من الوجود. كنت كمن قطع خمسةَ فراسخ في الضباب ويمشي الآن بالمصادفة على ذيل نمر يرفسه بقوائمه رفسة قوية وفظيعة. وهذا لا يشبه ضربة سوط يجلدك بها إنسان ما، بل جرح يشبه ألمه الَمَ النزيف: ألم قاسٍ جداً ولا يعرف السكون.

تجذبك النساء، وفجأة يدفعنك إلى الوراء، يعاملنك بازدراء ويظهرن قاسيات متوحشات عندما تكون داخل جماعة. وعندما لا يوجد أحد، يأخذنك بين الذراعين بعاطفية وهيجان. وينمن بعمق كما لو كنَّ ميتات: لا أدري إن كنَّ لا يعشن من أجل النّوم. ملاحظاتي المتعلقة بالنساء جميعها تكونت منذ الطفولة. كنت أشعر أن الرجال كائنات مختلفة تماماً على الرَّغم من انتمائهم إلى العِرق ذاته. أضف إلى أن هؤلاء الأشخاص الغافلين الغامضين كانوا يصغون إليّ بطريقة غريبة. لم تكن عبارات «محبوب»، «معبود» تناسب حالتي إطلاقاً. أما عبارة «كائن يُعنى به» فهي أكثر توافقاً مع شخصيتي.

تبدو النساء أكثر انفتاحاً وطلاقة من الرجال بصدد بهلول ـ مهرج. فعندما كنت أنكبُّ على دعاباتي، كان معروفاً أن الرجال لا يضحكون طويلاً بشكل عال. لذا كنت أنظم أسلوبي، وأعلم أنني إذا أطلت هرجي وبهللتي أسير نحو الإخفاق. وكنت حريصاً على التوقف في الوقت المناسب. أما النساء فلا يعرفن أي اعتدال: يطلبن مني أن أعيد بهلالاتي بلا توقف فأستجيب لهن حتى تنهك قواي. في الحقيقة، كن يضحكن كثيراً. وبشكل عام، النساء أقدر من الرجال على امتصاص فيض من اللّذات.

كانت الأختان اللتان تهتمان بي، أيام دراستي الثانوية، تصعدان إلى غرفتي حالما تجدان لحظة فراغ واحدة. وفي كل مرّة كنت أنتفض. عندها، كانتا تقولان بتواضع وخوف:

ـ هل تعمل!.

ـ كلا!.

ثم أغلق الكتاب مبتسماً.

ـ اليوم، هل تعلمان بأنّ أستاذ الجغرافيا الذي ندعوه بـ «العـود»... ثم أبتكر قصة مضحكة وأسردها عليهما بهدوء وحبور.

ـ ضع نظارتيك لأرى قليلاً: يايو ـ تشان!.

حـدث ذلـك ذات مـساء عنـدما قـدمت الأختـان، سـي ـ تـشان الصغرى والأخت الكبرى، لتلهوا قليلاً في غرفتي. وكانتـا قبـل ذلـك قد جعلتاني أقوم بأغرب وأعجب البهلالات المضحكة. أجبتهما:

ـ ولماذا؟.

ـ فقالـت الـصغرى: لأن هـذا مـثير للـضحك والغرابـة والتـسلية. ضعهما قليلاً. خذ نظارات الأخت الكبرى.

كانت تكلمني بهلة أمر مقتضبة.

أطاع سيّد المهـرجين ووضـع نظـارات الأخـت الكـبرى. فأخـذت الأختان على الفور بضحك هستيري.

ـ تماماً، إنه ليو ـ وايد، تماماً!.

كان «هارولود ـ ليو ـ وايد» آنذاك ممثلاً كوميدياً ذا شعبية كبيرة في اليابان. نهضتُ وبسطت ذراعي صارخاً بعبارة الترحيب:

ـ سيداتي، سادتي! اليوم، مجانين الرياضة في اليابان...

الأمر الذي أثار ضحكهن أكثر فأكثر.

بعد ذلك، وفي كل مرة يُعرض فيها فيلم «الليـو ـ وايـد» علـى مـسرح مدينتنا كنت أذهب لمشاهدته وأدرس فنّه الإيمائي دون أن أبوح بذلك.

ذات مساء خريفي، وبينما كنت أقرأ في سريري، دخلت الأخت الكبرى إلى غرفتي خفيفة كعصفور وارتمت فجأة فوق غطاء قدمي باكية.

ـ يوتشان، أنقذني، يوتشان. قد يكون من الأفضل أن نترك هذا البيت معاً. هو ذا الموضوع. ساعدني، أرجوك ساعدني.

أفلتت سيلاً من العبارات الغاضبة وأخذت بالبكاء. إن حالة نسوية مماثلة لم تكن غريبة عني. وليست المرة الأولى التي يُمثَّل فيها هذا المشهد أمامي. لم تخفني إطلاقاً حدة عبارات الأخت الكبرى. ومثلما صحوتُ فجأة على هذا اللّغو المكدور مرات ومرات والخالي من أي معنى، خرجت من السرير وقشّرت حبّة كاكي واحدة كانت فوق المائدة وأعطيت قطعة للأخت الكبرى. وبعد آخر نحيب لها، أكلت قطعتها وقالت لي:

ـ أليس لديك كتاب مسلٍ تعيرني إياه؟.

اخترت لها من كتبٍ مصفوفة فوق الرّف رواية «أنا قط» للكاتب الروائي «سوسيكي ـ ناتسومي»[1].

ـ شكراً لكَ على لُمجة الكاكي.

ثم غادرت الغرفة تعلو وجهها ابتسامة شاحبة.

ما سأقوله الآن لا ينطبق فقط على الأخت الكبرى. عندما أفكر بالعقلية التي تعيش بها النساء عموماً، ينتابني شعور بأن سبر فكر دودةٍ أرضية أسهل عليّ من سبر عقل النساء. فالنساء كائنات معقدة وعصبية. وقد علّمتني التجربة منذ الطفولة أن المرأة عندما تبدأ البكاء

---

(1) روائي ياباني معروف (1867 ـ 1916). له أيضاً رواية: «الباب» وروايات أخرى كثيرة.

فجأة وبهذه الطريقة، يكفي أن تقدم لها قطعة حلوى، ثم سرعان ما تأكلها وتعود المياه إلى مجاريها.

سي ـ تشان، الأخت الصغرى، كانت تصطحب صديقاتها أيضاً إلى غرفتي. وكالعادة، كنت أضحكهن. وما إن يخرجن حتى تبدأ سي ـ تشان بالكلام عليهنّ وتنقدهن بنبرة حادة: فلانة بنت سيئة ويجب الحذر منها. وذات يوم قلت «إذاً، كان يُفضَّل عدم دعوتها. أنتِ التي تتصرفين بحيث يكون جميع الزوار الذين يأتون إلى غرفتي نساءً!». وانتهى الأمر هكذا.

مع ذلك، فإن إطراء «تاكيتشي» لي: «ستكون محبوباً» لم يكن يتحقق حتى آنذاك. باختصار، لم أكن شيئاً آخر أكثر من هارولود ـ ليو ـ وايد للشمال الشرقي من اليابان. إطراء «تاكيتشي» البريء كان وبصفته نبوءة مزعجة، سابقاً لأوانه. فقط بعد عدة سنوات أخذ شكلاً مأساوياً.

هناك شيء آخر بصدد «تاكيتشي». قدم ذات يوم لزيارتي في الغرفة بالطابق الأول. وقد أحضر معه هدية هامة: رسم ملوّن أخذ يريني إياه ويفسره لي بغبطة وسرور:

ـ أتدري، إنه شبح!.

أوه؟ قلت في سري. آنذاك رأيت أمام ناظري مرسومةً طريق الهاوية حيث يجب أن أسقط. وبعد سنوات عديدة لم أستطع أن أتذكر هذه الرؤية بشكل آخر.

كنت أعلم. كنت أعلم أن ذلك ليس شيئاً آخر سوى بورتريه فان كوخ رسمه فان كوخ بنفسه. في عهد صبانا، كانت رسوم الانطباعيين الفرنسيين ذات شهرة كبيرة في اليابان. وفي تلك المرحلة تقريباً،

أخذنا بتذوق الفن الأوروبي. فتلامذة مدارس الأقاليم أنفسهم رأوا وتعرفوا على الأعمال الفنية المصوّرة لكلٍ من فان كوخ وسيزان، ورونوار وآخرين. شباب مثلي كانوا قد شاهدوا كماً هائلاً من اللوحات الملونة المأخوذة عن لوحات فان كوخ، وسيتذكرون جيداً أن أهميتها تكمن في لمسته الرائعة وألق ألوانه، لكن لن يخطر على بالهم أنها رسومات أشباح.

ـ على الرَّغم من كلٍّ شيء، لا أعرف ما هذا... قد يكون رأس شبح! أخذتُ من رف الكتب مجموعة لوحات «موديجلياني». وأطلعتُ «تاكيتشي» على صورةٍ تمثِّل امرأة عارية تماماً، تبدو بشرتها كالنحاس الأحمر المصهور.

ـ آه! عجباً!.

فتح «تاكيتشي» عينيه الكبيرتين المدورتين وأضاف بلهجة إعجاب:

ـ يشبه هذا حصاناً من الجحيم!.

ـ ومع ذلك، فإنه شبح!.

ـ أتدري، أريد رسم أشباح كهذا الشبح.

الذين يخافون جداً من أشباههم يصلون إلى حالة ذهنية تجعلهم يرغبون برؤية الأشباح الأكثر رعباً، كذلك العصبيون والأتقياء يتمنون بحرارة أن يشتد هيجان العاصفة الهائجة. وانتهى الأمر بمجموعة من هؤلاء الرسامين المصابين بالخوف والفزع من هذه الأشباح التي هي النّاس، إلى الاعتقاد بالأشباح. لقد شاهدوا هذه الأشباح علانية في وضح النّهار. وأكثر من ذلك، بدلاً من إعطائها مظهراً مضحكاً وهزلياً، فقد بذلوا ما في وسعهم لتقديمها كما اعتقدوا أنهم رأوها. بجرأة رسموا «أشباحاً»، كما يسميها «تاكيتشي». كنت ألتهب وأغلي

لحد البكاء عندما فكرت بأنني سأجد فيهم زملاء المستقبل. قلت لـ «تاكيتشي» ولا أعرف لماذا بصوت منخفض: «وأنا أيضاً، سوف أرسم! سوف أرسم أغوالاً! سوف أرسم أحصنة الجحيم!».

منذ المدرسة الابتدائية، كنت أحب الرّسم ومشاهدة الرسوم. مع ذلك، لم تكن طريقة تناولي لرسومي محلّ تقدير من يحيطون بي. مبدئياً، لم أعطِ أي انتباه لما كان يقال لي. وطريقة تأليف رسم كانت بالنسبة إليّ نوعاً من تحية البهلول ـ المهرج الذي يدفع أساتذته إلى الانفجار ضحكاً.

مع ذلك، وبالنسبة إليّ، لم يكن فيها أي شيء مضحك. فالرسم وحده (استثني رسوم الكاريكاتور)، وإذ يحتفظ بطريقته الفنيّة في تقديم الموضوع، لا يوحي بأي جهد. لم تكن هناك أية أهمية أو فائدة للرسوم المعطاة كنماذج في المدرسة. ورسوم الأساتذة كانت رمزاً للرعونة واللا مهارة. كان عليّ أن أعمل دون أي تحضير وأن أجرِّب أنواع طرق التعبير جميعها. عندما دخلت المدرسة الثانوية أحضرت عدة الرسم الزيتي بأكملها. لكن على الرَّغم من إرشادات الكتب المتخصصة، وجهدي لتقليد أسلوب الانطباعيين، فإن رسومي لم تكن تشبه سوى مشاريع أوراق ملونة يبدو أنها لا ولن تفضي إلى أي شيء. مع ذلك، وبسبب كلمات «تاكيتشي»، اعتقدت في الداخل أنني أخطأت كلياً بشأن رسوم كنت قد أنجزتها حتى ذلك الحين.

السعي لإبراز جمال شيء نرى أنه جميل لا أكثر، هو ضرب من الجنون، ضرب من البلاهة. «المعلمون»، دون الرجوع إلى غيرهم، يخلقون شيئاً جميلاً من لا شيء، أو بالأحرى لا يخفون أن شيئاً قبيحاً ينفرون منه يمكن أن يجدوه، في الوقت ذاته، مثيراً، ممتعاً ويحرصون على تقديمه وإظهاره. وبفضل «تاكيتشي» توصلت إلى السرّ الحقيقي الأصيل لأسلوب الرسم الذي لا يقيم وزناً للرأي العام.

كنت أرسم لوحات ذات فظاعة خفية تدهشني أنا شخصياً. مع ذلك، وبما أنني كنت أريد إخفاء طبيعتي الحقيقية في أعمق أعماقي، كنت أضحك أمام الآخرين وأضحكهم. ولكن في الحقيقة كان قلبي حزيناً ولا حيلة لي في ذلك. هذا ما كنت أقوله في سري. لذا ليس مدهشاً أنني لم أطلع أحداً على رسومي باستثناء «تاكيتشي». كنت أخاف أن أعرّي الحزن الموجود في أعماق البهلول، فينتبه الآخرون بسرعة إلى ما يمكن أن يكون قبيحاً في داخله. أضف إلى أنني كنت قلقاً من الظّنّ - ودون الانتباه إلى طبيعتي الحقيقية - بأن تلك طريقة جديدة للبهلول في التهريج والإضحاك. كان ذلك بالنسبة لي أصعب من أي شيء آخر، ولذا دفنت رسومي على الفور في قعر خزانة جدارية.

في المدرسة وفي حصة الرسم، كنت أخفي «تقنية الأشباح»، وأرسم كما في الماضي أشياء جميلة بالأسلوب العادي المستخدم «للتجميل».

منذ زمن طويل، وأمام «تاكيتشي» فقط، أخذت لا أبالي بإظهار حساسية أعصابي المفرطة. كنت أطلعه، بكلٍّ هدوء، حتى على البورترية الذي رسمته لنفسي. مدحه طويلاً. وبعد ذلك رسمت شبحين أو ثلاثة أشباح فتنبأ لي بهذه النبوءة الجديدة:

- سوف تكون رسّاماً عظيماً!

بعد زمن قصير قدمت إلى طوكيو متأثراً بهاتين النبوءتين اللتين أطلقهما هذا الأبله «تاكيتشي»: نبوءة أن أكون محبوباً ونبوءة أن أصير فناناً عظيماً.

كنت أرغب بدخول «مدرسة الفنون الجميلة»، لكن أبي كان يرغب ومن زمن طويل أن يراني في المعهد العالي كي يجعل منّي موظفاً. وكان قد أمرني بذلك. ولما كانت طبيعتي تمنعني من الرد عليه بأي شيء، لم أبدِ أية مقاومة.

قيل لي: ستجرب امتحان الانتقال من السنة الرابعة إلى السنة الخامسة، لكن، أنا لذي كنت أفتقر إلى جو أشجار الكرز والبحر الساحر، رسبت في امتحان الانتقال إلى السنة الخامسة. هكذا وبشهادة إتمام السنة الرابعة فقط دخلت إلى المعهد العالي في طوكيو. وسرعان ما انغمستُ في حياة المعهد الداخلية، فصدمت بالجانب الفظّ والقذر. هناك، لم يعد مكان للبهلول ـ المهرج. أعطاني الطبيب تقريباً لإصابتي بـ «ذات الجنْب» [التهاب غلاف الرئة فيحدث منه سعال وحمّى وتحسس في الجنب يزداد عند التنفس. م]، فتركت المعهد وحياته الداخلية، وغادرت إلى دار أبي في «ساكورا ـ جيتشو» بـ «أوينو». بالنسبة إليّ، كانت الحياة الجماعية مستحيلة تماماً، ثم إنني عندما كنت أسمع ردود الفعل القوية، ردود فعل المراهقة، وتبجّحات الشباب، كان يستولي عليّ البرد ويُجمّد الحزن تفكيري. ومهما أفعل، كان يستحيل عليّ اللحاق بقطار الآخرين والسير معهم. فالانحرافات الجنسية في قاعة الدرس وفي عنبر النوم، كانت في نظري كومة من القاذورات. فالبهلول ـ المهرج القريب من الكمال، ذلك الذي كنته، ليس له أي مكان هنا.

خارج وقت انعقاد دورات المجلس التشريعي، لم يكن أبي ليسكن الدار سوى أسبوع أو أسبوعين في الشهر. وفي غيابه، لا يتواجد في هذه الفيلا الواسعة جداً سوى بواب عجوز وزوجته وأنا. لم يخطر لي أن أزور طوكيو عندما كنت أهرب من المعهد من حين إلى آخر. وفي النّهاية، لم أذهب أبداً لرؤية معبد «ميجي ـ جينجو»[1]، ولا تمثال

---

(1) معبد كبير أقيم في طوكيو تخليداً لذكرى الإمبراطور «ميجي».

«كوسونوكي ـ ماساشيغي»[1] البرونزي، ولا قبور الـ 47 ساموراي[2] [اسم يطلق على المحارب الياباني في العهد الإقطاعي. م] في معبد «سينكا ـ كوجي». كنت أقضي النهار في البيت، أقرأ أو أرسم. وعندما يعود أبي إلى طوكيو، أتظاهر بالذهاب سريعاً إلى المعهد كل صباح. لكن، في الواقع، كنت أذهب إلى «هونغو» في حي «سينداغيتشو»، أي إلى «مركز الرسوم الأجنبية»، أو إلى مشغل «ياسودا ـ شيتارو» حيث أتدرب على الرسم ثلاث أو أربع ساعات.

بالهرب من الحياة الداخلية للمعهد العالي، كنت أهرب أيضاً من مناهج التعليم هناك. لذا كنتُ أشبهَ بطالب ـ مستمع حر. ربّما كان هذا قراراً مبتسراً من جهتي. على أية حال، كنت أشعر بغربتي الشديدة جداً في المعهد لدرجة أنه أصبح صعباً عليَّ الذهاب إليه. مررت بالمرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، ولم أستطع أن أفهم أبداً، في النهاية، كيف يمكن أن نحبّ المدرسة. كذلك لم أسع مرّة واحدة للانضمام إلى نشيد مدرسي.

عاجلاً، وفي مشاغل الرسم، تعلمت من طلاب الفنون الجميلة شرب الخمر، والدخان، ومعاقرة البغايا، والاقتراض من مكاتب الدَّين[3]، والأفكار اليسارية. كلٌ هذا يشكل خليطاً غريباً، لكنه واقعي.

---

(1) سياسي معروف ومشهور بولائه للإمبراطور (النصف الأوّل من القرن السادس عشر).

(2) حكايةٌ مشهورة: حكايةُ الـ 47 ساموراي الذين ثأروا لقائدهم بعد أن حُكِمَ عليه بالانتحار لأنه سلَّ سيفه على أحد خصومه في حرم القصر الإمبراطوري. وبعد أن انتقما له من الرأس المدبِّر انتحروا جميعاً.

(3) مكاتب تقرض النقود مقابل رهن أشياء: ثياب ثمينة مثلاً أو ساعة أو آلة تصوير... إلخ ولا تزال هذه المكاتب منتشرة في أنحاء اليابان.

كان طالب الفنون الجميلة ذاك يدعى «هوريكي ـ ماساو». ولـد في الأحياء الشعبية بطوكيو، ويكبرني بست سنوات. كان قد أنهى دروسه في مدرستنا، ولم يكن عنده مشغل في بيته. لـذا كـان يـأتي دومـاً إلى المدرسة ليتابع ممارسة الرسم الأوروبي.

ـ ألا تريد أن تقرضني خمس[1] ينات؟.

حتى ذلك الوقت، لم نكن نعرف بعضنا إلاّ بـالنظر ولم نكـن قـد تبادلنا أية كلمة. متلجلجاً أعطيته خمس ينات.

ـ لا بأس. سنشرب. سأقدم لك شيئاً ما. يا لك من فتى جميل.

لم أرفض. قادني إلى مقهى في «هورايتشو» قـرب متنـزه مـشجر. وكانت بداية علاقتي معه ومع زملائه في المشغل.

ـ منذ زمن طويل لاحظتك. فهذه الابتسامة الخجولـة تعـبير خـاص عن فنان له مستقبل. وعلى شرف هذا اليوم الذي تعرفت فيـه عليـك، اشرب نخبك! «كينو ـ سان»! فتى جميل أليس كـذلك؟ منـذ أن قـدم إلى المشغل، لم أعد أحتل سوى المرتبة الثانية بين الفتيان الوسيمين!.

كان لـ «هوريكي» وجـه متناسـق مـألوف، وسـحنة سمـراء. وكـان يرتدي، على عكس غالبية طلاب الفنـون الجميلـة، بذلـة لائقـة جـداً وربطةَ عنقٍ رماديةً تنمُّ عن ذوق جيد. كان شعر رأسه المدهون مفروقـاً في الوسط بشكل واضح ودقيق.

---

(1) خمس ينات لا تعادل اليوم (1997) أي شيء وليست لهـا أيـة قـوة شـرائية. فهل يمكن أن نتصور قوتها الشرائية آنذاك والتطور الذي حدث على قوة الـين الشرائية خلال نصف قرن. لعلّنا نستطيع مقارنتها بـ «خمسة قـروش» سـورية أو لبنانية اليوم.

عندما وجدت نفسي في مكان غير مألوف بالنسبة إليّ ويخيفني أيضاً، شبكت ذراعي واكتفيت بابتسامات خجولة. بعد أن شربت كأساً، كأسين، ثلاث كؤوس من البيرة، اعتراني إحساس غريب من الخفة والتحرر.

ـ كنت أنوي الدخول إلى «مدرسة الفنون الجميلة» لكن...

ـ لا تفعل هذا. فهي لا تستحق العناء ولا قيمة لها. مكان مثل هذا غير ممتع. المدرسة غير ممتعة. أساتذتنا في داخلنا بشكل طبيعي. الطبيعة عكس التقعّر!.

مع ذلك، لم أشعر بأي تقدير لما يقول. أعتقد أنه أبله ورسومه رديئة بلا جدال، لكن ربما يكون صاحباً جيداً أوقات الخروج والتسلية. في تلك المرحلة، رأيت لأول مرّة في حياتي أنذال المدينة الحقيقيين. لم نكن ننتمي إلى المحيط نفسه، لكن كنا، وبشكل ما، من طينة واحدة. كلانا يحب المغامرة للهرب عمداً من الانشغالات التي تُبنى عليها حياة النّاس. أضف إلى أنه كان يتصرف معي دون أن تكون له أدنى فكرة عن المهرج الذي كنته، وكان يجهل تماماً بؤسي ومأساتي. هكذا كوّن عني صورة خاطئة تماماً.

كنت أفكّر: «إنْ هو إلاّ من أجل التسلية، ولا أرى فيه سوى شريك ملذات». لكن في العادة أحتقره. وكنت أشعر بالخجل أحياناً عندما أخرج بصحبته: مع ذلك، بفعله، بفعل هذا الرجل فُضَّت حياتي.

في البداية، اعتقدت أنه ذو طبيعية طيبة، طبيعة لا مثيل لها، طبيعة نادرة. بفضله، لم أعد أبالي بمخاوفي من أشباهي لحد أنني اقتنعت بإمكانية أن أكون دليلاً سياحياً في طوكيو. والواقع، عندما كنت وحيداً في السابق، كان جابي الترامواي يخيفني؛ وعندما أرغب

دخول مسرح «الكابو ـ كيزا»[1]، كانت المُجلِسَاتُ المصطفات على طرفي الدرج ذي السجادة الحمراء أمام المدخل الرئيس يخفنني، وعندما كنتُ أذهب إلى المطعم، كان النادل الذي يقف ورائي بلا حراك وصحن نظيف بيده يخيفني، وعندما يحين وقت دفع الحساب تأخذ يداي بالارتجاف والارتباك؛ وعندما كنت أشرب شيئاً ما وأمدُ يدي لدفع النقود، كنت أشعر بالدوار والدوخة، ليس بخلاً، ولكن بسبب توتر أعصابي، بسبب خجلي، بسبب اضطرابي ومخاوفي؛ كان يدور رأسي والعالم يظلم من حولي، وكنتُ أنتهي إلى الشعور بأنني نصف مجنون. وعندما كنت أتواجد في مكان للبيع والشراء، لم أكن أنسى ما يعاد لي من نقود فقط، بل كنت أنسى مشترياتي أيضاً. كان يحدث لي ذلك دائماً لحد أنني لم أكن أستطيع الذهاب وحيداً إل طوكيو. ولم يكن بوسعي أي شيء إزاء هذا الأمر. لذا كنت أضيّع وقتي طوال النهار في البيت. هكذا كانت حالتي.

وعندما كنت أخرج بصحبة «هوريكي»، كنت أعطيه محفظة نقودي. كان يساوم كثيراً. ثمّ إنه كعربيد محنك، كان يدأب على صرف أقل ما يمكن من النقود. كان يعرف كيف يتحاشى سيارات الأجرة المكلفة ليختار الترامواي والباصات والقوارب العامة: كان يبدي موهبة حقيقية للوصول إلى النقطة المرادة بأقصر وقت ممكن. وعندما كان يعود في الصباح من عند عاهرة، كان يدخل بيتاً من بيوت الشاي كي يأخذ حمّاماً صباحياً[2] كأنه رجل ثري، ثم يأكل

---

(1) مسرح طوكيو الكبير.

(2) اليابانيون يستحمون عادة في المساء، بعد تناول الطعام وقبل النّوم. من يستحم في الصباح إما مسافر يصل الفندق صباحاً أو رجل «قضى الليلة» خارج البيت.

فطيرة فاصولياء مسخنة ويشرب قليلاً من السّاكي. كان يشعر أنه، وبقليل من المال، يعيش حياة ترف ممتازة، وهكذا كان يقدِّم لي تدريباً عملياً. وفي الوقت نفسه، كان يقول لي بأن لحم العجل بالرز أو الدجاج المشوي لدى الباعة المتجولين رخيصان ومغذيان جداً؛ وكان يؤكد لي بأنه من أجل سكرٍ سريع لا شيء يعادل الكحول الرديئة. على أية حال، لا أذكر أبداً أنني قلقتُ من أجل تسديد حساب وهو معي.

ما كان يدفعني إلى معاشرة «هوريكي»، هو أنه كان معتاداً على تجاهل آراء وأفكار مستمعه تجاهلاً تاماً: وبشغف شديد يندفع (ربّما يعود هذا الشغف إلى إرادته الحاسمة بألاّ يقيم أي اعتبار لأفكار شريكه) في ثرثرات تافهة، ثرثرات تستمر خمس أو ست ساعات دون أن ينبغي الخوف من الصمت المزعج الذي قد يسببه تعب متنزهَين. كنت ألتصق به وأحرص على ألاّ يخيمَ الصمت المقيت أبداً. بطيء في الكلام دوماً، كنت أقول لنفسي: هكذا لم أعد مجبراً على تمثيل دور البهلول ـ المهرج اليائس. غير أن هذا الأبله «هوريكي» كان يشجعني على ذلك دون دراية منه. كنت أكتفي، دون إبداء أية ملاحظات مناسبة، بتركه يسهب في أحاديثه، أو بالقول عند الحاجة: «ممكن أو هذا مستبعد» أو ما شابه ذلك. أبتسم. وهذا يكفي.

الكحول، الدخان، النساء، تلكم هي الوسائل الناجعة لصرف الخوف الذي كنت أشعر به أمام الآخرين؛ حتى وإن لم يكن ذلك إلاّ لوقت قصير. وسرعان ما فهمت هذا. ومن أجل الحصول على تلك الوسائل، قبلت فكرة أن أبيع كلَّ ما أملك دون أي أسف.

بالنسبة إليَّ، العاهرات كائنات بشرية بالتأكيد، لكنهن لسن نساء. يبدون لي إما حمقاوات أو معتوهات. في أحضانهن كنت أشعر

بسلام، وأستطيع النّوم نوماً عميقاً مثل قبقاب. كائناتٌ تثير الشفقة: لم يكنَّ ليحركن لدي أقل رغبة في الاشتهاء. وإذا رجعت بذاكرتي إلى اللواتي كن يشعرن بالمودة تجاهي، فأولئك أظهرن على الدوام نيةً طيبةً طبيعيةً منزّهة عن العوز، نية طيبة منزهة عن الحساب، لا إجبار فيها ولا إكراه، نيةً طيبةً كانت تتجلى بصدد من قد لا يعود مرّة ثانية. رأيتُ في بعض الليالي هالة العذراء ترتسم فوق ملامح هؤلاء العاهرات الحمقاوات وأنصاف المجنونات.

كنتُ أهرب من الخوف من أشباهي. في إحدى المرات، ولكي أتمتع متعة بائسة لليلة واحدة، ذهبت إلى هناك، وبينما كنت ألهو مع هؤلاء العاهرات اللواتي «يشعرن بالمودة تجاهي»، شعرت في لحظة ما أن جوّاً من القرف يطوف حول جسدي. بالنسبة إليّ، كان ذلك كله ضرباً من «الإضافة المجانية» التابعة لتسلياتي، إضافةً أصبحت أكثر وضوحاً بالتدريج. وقد لفت «هوريكي» انتباهي إلى هذا الأمر، فأصبت بالهلع وانتابني إحساس بالقرف.

إذا نظرتُ إلى الأشياء بموضوعية، أرى أنني عرفت النساء من خلال العاهرات. وقد أحرزت على هذا الصعيد تقدماً ملحوظاً جداً في الآونة الأخيرة. إن أعمق معرفة بالنساء تُكْتَسَبُ من خلال العاهرات: العاهرات أنجع وسيلة لبلوغ تلك المعرفة. لقد كنت مغطىً برائحةِ «رجلٌ للنساء»، وكانت النساء (ليس العاهرات فقط) تنجذب نحوي بفعل تلك الرائحة التي كن يشعرن بها فطرياً. وبما أنني كنت أتنعم في هذا الجو الفاحش المخزي، كنت أعثر عليها في هذا الوسط حيث تُقَنِّعُ الرَّاحةَ التي جئت للبحث عنها.

كان «هوريكي» قد لفت انتباهي بلطف وبشكل جزئي إلى هذه القضايا. ومع ذلك، تفجّرت في ذاكرتي ذكريات أليمة. أمثلة: أذكر أنني

تلقيت من امرأة تعمل في مقهى رسالة رديئة الخط وصبيانية؛ أذكر أن فتاة في العشرين من عمرها تقريباً، وهي بنت جنرال يسكن بيتاً مجاوراً في «ساكورا ـ جيتشو»، كانت تقف كلَّ صباح وأثناء ذهابي إلى المدرسة، قدام مدخل بيتها دون سبب واضح وبوجه مخضب قليلاً؛ أذكر نادلة المطعم حيث كنت أذهب لأتناول لحم العجل، ودون أية كلمة أقولها...؛ وعندما كنت أذهب لشراء الدخان من البائع الذي اعتدت عليه، أذكر ما كانت تضعه ابنة التاجر في علبة السجائر التي تناولني إياه...؛ ثم عندما كنت أذهب إلى مسرح «الكابوكي» أذكر المكان المجاور لمكاني...؛ وفي اللّيل عندما أعود سكران في الترامواي..؛ ثم تلك الرسالة المفاجئة التي أرسلتها بنت قريب لي في البلدة: رسالة يبدو أنها كتبت بعد تفكير طويل... ثم تلك الفتاة المجهولة التي أحضرت في غيابي دميةً لا شك أنها من صنع يديها... أمام جميع هذه النداءات بقيت بارداً ببرودة تامة، وبقيت كلُّها في حدودها تلك، دون أن يتجاوز أي منها مرحلة الجنين. مما لا شك فيه أنني كنت محاطاً بجو يجعل النساء جميعها حالمات. ولا بدَّ من الاعتراف بأن هذا الجو لا صلة له بقصص نسائية ناجحة قد أتباهى بها. وقد لفت انتباهي إلى ذلك «هوريكي»، فشعرت بمرارة يشوبها الخزي. وفجأة فقدت رغبة التمتع مع العاهرات.

بدافع من غروره الحداثوي، اصطحبني «هوريكي» ذات يوم إلى ندوة قراءةِ مؤلفات شيوعية (لعلَّ ذلك يدعى ر. س، لا أذكر بالضبط) ضمن حلقة دراسات شيوعية. بالنسبة إلى شخص مثل «هوريكي»، لا بدَّ أن اجتماعاً شيوعياً يشكِّل جزءاً من برنامج «دليل سياحي حقيقي» في طوكيو. قدَّمني «هوريكي» كمؤيد، كمتعاطفٍ. ثم باعوني كتيباً صغيراً. ورحت أصغي إلى شاب ذي وجه قبيح جداً ويحتل مكان الصدارة. كان يلقي محاضرة حول نظريات ماركس

الاقتصادية. بالنسبة إليَّ، تبدو هذه النظريات واضحة وضوح النّهار. ولا بدَّ أن تكون كذلك. إلاَّ أن الطبيعية البشرية تحتوي على أشياء رهيبة لا تُدرك دوافعها. نستطيع الكلام على الجشع، لكن هذا لا يكفي؛ ونستطيع الكلام على الغرور والتفاهة، ولكن هذا لا يكفي؛ نستطيع الكلام على الحب والجشع دفعة واحدة، لكن هذا لا يكفي. لا أعرف ما هذا بالضبط، لكن جوهر الإنسانية لا يرتكز بالتأكيد على الاقتصاد وحده. بالنسبة إليَّ، أنا الذي يصدق قصص الأشباح ويرتعب منها، لا أستطيع أن آمل بأن المادية ـ على الرغم من تطميناتهم ـ سوف تنسيني كلَّ شيء وسوف تخلّصني من خوفي من أشباهي وتفتح عيني على مفهوم جديد للحياة. مع ذلك، كنت أحضر ندوات الـ «ر.س» (أعتقد هكذا كانت تدعى. لكن ربما أنا مخطئ) دون أن أتخلف مرّة واحدة عن الاجتماعات. ولدى رؤية المؤيدين ذوي الوجوه المتوترة من دراسة نظريات لا يتعدى مستواها مستوى علم الحساب الأولى: 1+1=2، لم يكن بإمكاني إلاّ أن أجدهم مثيرين للسخرية ومضحكين. كنت أبذل ما بوسعي، أنا الدعابي المعروف، لترطيب أجواء هذه الحلقات الدراسية. ولهذا، عندما كنت أغيب، كان يقال بأن أحداً لا يستطيع الحلول مكاني. لعلَّ هؤلاء البسطاء كانوا يعتبرونني رجلاً بسيطاً مثلهم، نصيراً يحب الدعابة ومتفائلاً. لكن كان ذلك كذلك، لأنني كنت أخدعهم من الألف إلى الياء. لم أكن نصيراً. ومع ذلك، في هذه الاجتماعات التي لم أتخلف عن حضورها بانتظام، تابعت تسليتهم بدعاباتي المضحكة.

ذلك أنني كنت أحب هؤلاء النّاس، كانوا يروقون لي. لكن لا علاقة لهذا بالحب الذي قد أكنه لماركس.

المخالفة القانونية. كانت تمنحني شعوراً غامضاً بالرضى، أو بالأحرى، ما كنت أحبه فيها، هي أنها تريحني، تشجعني. وذلك على نقيض القانونية السائدة في العالم والتي كانت تريعني. فأنا لا أفهم بنية الذهن هذه. من الأفضل عدم البقاء في غرفة ليست لها أية نافذة حيث نثلّج إلى أعماق أعماقنا، بينما هناك في الخارج بحر المخالفة القانونية الذي نستطيع أن نقفز فيه ونغوص لحد الموت السريع. وهنا تكمن السكينة الحقيقية على ما أظن. هناك ناس تطلق عليهم أسماء المنبوذين، طيور الليل. يبدو أن هذه الكلمات تشير، ومن بين البشر جميعاً، إلى كائنات مثيرة للشفقة، بائسة، منهزمة، فاسدة، مشينة. مع ذلك، أشعر منذ الولادة بالميل إلى هذه الكائنات. وعندما ألتقي بكائن منها، كائن يشار إليه بالبنان، أشعر دوماً بالشفقة حياله.

هناك أيضاً مذنبون يعون أنهم مذنبون. أنا واحد من هؤلاء، وكنت طوال حياتي يعذبني هذا الوعي، وعيي أنا، بأخطائي. مع ذلك، عندما كنت أذهب للتسلية، بشكل يرثى له، مع زميل حميم يشبه صاحبة زمن البؤس التي لا نتخلى عنها في أيام أكثر سعادة، ربّما كنتُ أتخذ موقفاً في الحياة. كنت، كما يقال بشكلٍ مبتذل، أعاني من ضمير أعرج، تماماً كما يصاب الجسد بجرح في الساق: لم يكن هذا الجرح يؤلم سوى ساقي في الطفولة؛ وعندما كبرت ـ أهو تأثير العلاج ـ تفاقم الألم، تفاقم وبلغ النخاع، وتألمت ألماً فظيعاً كما يجب أن نتألم في الجحيم. ومع ذلك، (مع أن هذا أسلوب غريب جداً في التعبير عن الذات) أصبح هذا الألم بالنسبة لي أغلى من مشاعر القرابة. ولا أزال أذكر أن الألم الذي كان يسببه ذلك الجرح، كان في نظري إحساساً ينبض بالحياة، أو وشوشة تشبه وشوشة الحبيب.

كان جو الجماعة في إطار حركة سريّة حقيقية يباشرها هؤلاء النّاس، يمنحني هدوءاً عجيباً وطمأنينة روحية كبرى، باختصار، كان نقاء هذه الحركة، وأكثر من هدفها الأساسي، يمنحني الإحساس بأنني على اتفاق معها.

أما فيما يخص «هوريكي»، فكان يقتصر على سخريات تافهة، حمقاء. وتوقف عن الذهاب إلى الاجتماعات بعد أن قدمني. كان يلغو ويثرثر ببلاهة عن الماركسية داعياً إلى ضرورة دراسة الإنتاج والاستهلاك بشكل متزامن. وكان يدفعني إلى دراسة الاستهلاك فقط دون أن يتردد إلى الاجتماعات.

عندما نعود إلى تلك المرحلة، نلاحظ وجود ماركسيين من جميع الأصناف. فالبعض مثل «هوريكي» كان يسمي نفسه ماركسياً بدافع غرور حداثوي، وكان البعض الآخر، مثلي، يتعلق بالماركسية فقط لأجل شذا المخالفة القانونية التي تروق له. ولو أن الأنصار المقتنعين بالحقيقة الماركسية اكتشفوا الموجود في أعماق هذه الأصناف، لكانوا جنوا من الغضب على «هوريكي» وعليَّ أنا، ولربما كانوا طردونا من الحزب بصفتنا خونة. لكن لا «هوريكي» ولا أنا لم نطرد. نستطيع، وبشكل خاص في عالم مخالفة القانونية، أكثر منه في عالم أسياد القانونية المحترمين، أن نشرب نخب الحزب بسعادة. وبصفتي نصيراً مستقبلياً مليئاً بالوعود، كنت أكلَّف بكم كبير من المهمات أطلق عليها اسم «قضايا سريّة» بشكل مبالغ فيه. لحد أنني كنت أرغب بالانفجار ضحكاً. لم أرفض أية مهمة منها. قبلتها جميعاً بلا اكتراث. اشتبه بي «الكلاب» (هكذا كان أنصار الحزب يسمون رجال الشرطة) وارتابوا بأمري فاستجوبوني. لم أرتكب أية حماقة. ابتسمت، ثم أضحكتهم وببراعة تخلصت من تلك القضايا الخطيرة كما يسميها أنصار الحزب.

ذلك أن المجموعة التي كانت تشجع هذه الحركة، كانت تهوّل أهمية هذه القضايا إلى حد تقليد القصص السرية البوليسية فتعمل بغاية من الحيطة والحذر.مع ذلك، كانت مهمتي، ويا للدهشة، شيئاً تافهاً بلا معنى، لكنهم بذلوا ما في وسعهم لتضخيم مخاطرها. في تلك الفترة كان شعوري كالآتي: لم يكن يهمني أن يقبض عليَّ عضواً في الحزب، أو أن أقضي حياتي كلَّها في السجن. ولأنني أخاف «الحياة الواقعية» للبشر، كنت أتساءل : ألا يمكن أن أكون أكثر سعادة في زنزانةٍ مني في جحيم سرير حيث أتأوه وأتألم في ليالٍ من الأرق.

كان أبي يستقبل الزوار في بيته بـ «ساكورا ـ جيتشو»، أو يخرج بحيث نبقى ثلاثة أو أربعة أيام لا نلتقي مع أننا نسكن البيت نفسه. مع ذلك، وبما أن مناقشة واحدة مع أبي كانت تملؤني غيظاً وتجعلني أرتجف، كنت على وشك أن أخبره، بطريقة أو بأخرى بأنني أفكِّر بترك المنزل واستئجار بيت في مكان آخر. لم أكن قد اقترحت شيئاً من هذا القبيل، عندما علمت من البواب العجوز بأن أبي ينوي بيع البيت.

كانت فترة نيابة أبي في المجلس تقترب من نهايتها. وكان لديه بالتأكيد أسباب كثيرة كي يتصرف بهذا الشكل؛ لكن لم يبدُ عليه أنه يرغب بالترشّح للانتخابات. بالعكس، كان يريد بناء بيت في البلدة واعتزال السياسة. ولم يبد عليه أنه يأسف لترك طوكيو. ثم هل كان يعتقد أن لا حاجة إلى وضع فيلا مع خادم تحت تصرفي مع أن المصاريف لا تتعدى نفقة طالب في مدرسة داخلية! لا أدري، لأنني لم أفهم أبداً أفكار أبي أكثر من فهمي لأفكار الآخرين. ومهما يكن من الأمر، فإن هذا البيت سينتقل عاجلاً إلى أيادٍ أخرى وسأذهب أنا للسكن في غرفة مظلمة، موحشة، داخل منزل يدعى «سان ـ يوكان» في «موري كاوا ـ تشو» بحي «هونغو». عندها أزعجني موضوع النقود فوراً.

حتى ذلك الوقت، كان أبي يعطيني كلَّ شهر مبلغاً ثابتاً لمصاريف الجيب، وسرعان ما ينتهي خلال يومين أو ثلاثة. لكن كان يوجد في البيت كلُّ شيء: دخان، ساكي، جبنة، فواكه. أما بالنسبة إلى الكتب والقرطاسية واللباس، فكنت أحصل عليها من الحوانيت المجاورة بموجب فواتير محررة ومسجلة على الحساب. وعندما كنت أدعو «هوريكي» إلى صحن من الشعيرية بالحنطة المشوربة، أو إلى صحن من الرز باللّحم المقلي، أي إلى وجبة في حي الدكاكين التي كان أبي زبوناً لها، كان بإمكاني الذهاب دون أن أدفع.

بسرعة وجدت نفسي وحيداً في النزل. كان يستحيل على الراتب الشهري الذي يرسل إليَّ أن يغطي حاجاتي. لم أكن أعرف كيف أتصرف. فالنقود التي أستلمها تذوب خلال يومين أو ثلاثة أيام بشكل منتظم. ولشدة خوفي ووهن عزيمتي لحد فقدان الصواب، كنت أرسل إلى أبي، إلى أخي الكبير، وإلى أختي الصغرى بشكل دوري برقيات ورسائل مفصلة جداً لأطلب منهم النقود. الظروف التي كنت أذكرها في هذه الرسائل، مفتعلةٌ تماماً: إنها من ابتداع الدعابي ـ الهازل الذي كنته. كنت أعتقد، ولكي نطلب شيئاً من شخص ما، أنه من الحذاقة إضحاكه أولاً. كنت أمطرهم بالطلبات. أضف إلى أنني سمعت نصيحة «هوريكي» وصرت زبوناً مواظباً على مكاتب الدَّين. كلُّ هذا لم يمنع من أن أظلَّ راكضاً وراء النقود.

في النهاية، لم أعد قادراً على الاستمرار في الحياة منعزلاً عن النّاس ودون علاقات اجتماعية في هذا الفندق. ولأنني كنت أعيش وحيداً في غرفتي، كان الخوف يجعلني أتخيل بأن أحدهم سيقتحم عليَّ المكان ويشبعني ضرباً ثم يرميني إلى الشارع. عندها، كنت أذهب لمساعدة الحركة التي تحدثت عنها، أو أذهب للتسكع مع

«هوريكي» ونحتسي أرخص الخمور. كنا قد هجرنا الدراسة والرسم بشكل تام تقريباً. وكنا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنتي الدراسية الثانية في المعهد العالي. إن محاولة انتحاري مع امرأة متزوجة تكبرني بسنتين أدت إلى تغيير تام في حياتي.

لم أعد أذهب إلى المعهد. لم أعد أدرس أية مادة من مواد المنهاج. ومع ذلك، قدِّر لي أن أتمكن من تناول موضوعاتي في الامتحان بشكل ملائم. على أية حال كنت أتابع خداع أهلي في البلدة، غير أن المدرسة أرسلت تقريراً سرياً إلى أبي بخصوص غيابي المستمر عن الدراسة. فأرسل لي أخي الكبير، باسم أبي، رسالةً طويلةً وبأسلوب رسمي مهيب. لكن الضربة التي آلمتني أكثر، كانت حرماني من النقود. إضافة إلى ذلك، كنت غارقاً تماماً في قضايا الحركة التي تعاملت معها لحد آنذاك من باب التسلية تقريباً. كان يُدعى ذلك القطاع المركزي، أو أي قطاع، لديهم. المهم أنني أصبحت رئيس نشاط مجموعة الطلاب الماركسيين في مدارس أحياء «هونغو» كلها، «كواشيكاوا»، «شيتايا»، «كاندا». أُخبِرْتُ بإمكانية «انتفاضة مسلحة» فاشتريت مدية (عندما أفكر بها الآن، أعتقد بأنها كانت تستطيع، أو تكاد تستطيع، أن تبري قلم رصاص هش جداً). كنت أحملها في جيب معطفي الشتوي، وهكذا كنت أضطلع بضمان ما يدعى «الارتباط» متجولاً في الجهات جميعها. كنت أنام بعمق عندما أشرب الساكي. لكن لم تكن لدي نقود. وإلى ذلك، كانت الطلبات الآتية من «ح» (أشرت إلى أن «ح» رمز نداء الحزب. لكن ربما أنا مخطئ) تتوالى لدرجة أنه لم يعد لدي الوقت الكافي لالتقاط أنفاسي. وبسبب بنيتي الضعيفة، لم أعد أبداً في مستوى مهمتي. في البداية، ساعدت هذه المجموعة بدافع حبي للمخالفة القانونية، لكن الأمر لم يعد مزحاً الآن، والأشياء كانت جدية. ولما انتهى بي الأمر إلى الغرق بهذا الشكل في الشغل، قلت لنفسي: «يا

شباب الحزب! أخطأتم باختياري. ماذا لو أسندتم مهماتي إلى رجل من صفوفكم؟». وبما أنني لم أستطع منع نفسي من تكرار هذه الفكرة المثيرة للأعصاب، فقد هربت. هربت، لكن، هكذا يمكن أن نحدس، كنتُ مليئاً بالكآبة وعازماً على الموت.

في تلك المرحلة، كانت هناك ثلاث نساء يكنّنّ لي مشاعر خاصة. الأولى هي ابنة صاحب نزلي «سانيوكان». عندما كنت أعود من مساعدة الحركة، أنام دون طعام. وذات مساء دخلت هذه الفتاة إلى غرفتي وفي يدها دفتر وقلم.

ـ عفواً. في الطابق السفلي، تثير أختي الصغيرة وأخي الصغير ضجة فلا أستطيع كتابة رسالة بهدوء.

ثم جلست على طاولتي لتكتب خلال ساعة أو أكثر. وفي الوقت الذي كنت لا أفكر فيه إلاّ بالاستلقاء على سريري محاولاً النّوم، أرادت الفتاة بقوة أن تجعلني أتكلم. كنت أحرك جسدي المرهق من التعب بسلبية. وعلى الرّغم من عدم رغبتي بنطق كلمة واحدة، استدرت على بطني طوعاً أو كرهاً؛ ثم أشعلت سيجارة وقلت:

ـ يبدو أن رجلاً قد استحم بماءٍ سخّنه على نار رسائل عشيقاته.

ـ أوه! يا للهو! أظنه أنت!.

ـ حدث لي أن أسخّن حليبي بهذه الطريقة.

ـ إنه لشرف بالنسبة إلى هذه الرسائل! اشربه إذاً!.

سوف لن تخرج إذاً؟ تلك الرسالة، لم تكن سوى ذريعة ظاهرة. لقد حاولت عبثاً أن تكتب وهي تتمتم ببعض الكلمات، لكن ذلك لم يغير في الأمر شيئاً.

قلت: أرني. مع أنني لم أرغب رؤية تلك الرسالة بأي شكلٍ كان.

ـ آه كلا! لا أريد! لا أريد.

ويكلٍ خجل من لعبتها استعادت صوابها.

حينئذ، فكرت أن أطلب منها خدمة ما:

ـ عفواً. لو كان باستطاعتكِ أن تذهبي إلى الصيدلية الموجودة في شارع الترامواي وتشتري لي «كالموتين»؟ أشعر بالإرهاق، والحرارة تحرق وجهي ولا أستطيع النّوم. اعذريني! أما النقود فـ...

ـ لا بأس، لا بأس. عندي نقود.

ثم نهضت سعيدة . أن تطلب خدمةً من امرأة، فذلك لا ينفرها أبداً، بالعكس، تغتبط المرأة التي طلب رجل شيئاً منها. كنت أعرف هذا جيداً.

أما المرأة الثانية فكانت نصيرة في الحزب وطالبة في المعهد العالي للبنات، قسم الآداب. كان لا بدَّ أن نلتقي كلَّ يوم طوعاً أو كرهاً لأجل قضايا ومشكلات الحركة التي تحدثت عنها. وبانتهاء عملنا، كانت ترافقني وتشتري لي كمية كبيرة من الأشياء.

ـ اعتبرني حقاً كأُختك الكبرى.

كان هذا الإدعاء يثير قشعريرتي. فأجيب راسماً الابتسامة على وجهي، لكنني قلق قليلاً:

ـ هذا ما أنويه.

مهما يكن من الأمر، كنت أخاف أن أثير غضبها، ووجب علي أن أخدعها. وفي سبيل هذه الغاية، جعلت من نفسي شيئاً فشيئاً الفارس

الخادم لهذه الفتاة البشعة التي كانت لا تروق لي وتزعجني. ثم إن الأشياء التي كانت تشتريها لي (في الحقيقة، كانت أشياء تنمّ عن ذوق رديء.وكنت بلا تردد أعطيها لبائع الدجاج المشوي العجوز) كنت آخذها بوجهٍ مبتسم وأضحكها بدعاباتي. وذات مساء صيفي، لم أستطع إبعادها عني. ولكي أتخلص منها، لا لشيء آخر، قبّلتُها في مكان مظلم من الشارع. ثم، كما لو أن جنوناً هائلاً استولى عليَّ، استدعيت سيارة تاكسي واصطحبتها إلى غرفة ضيقة ذات هندسة غريبة تبدو كأنها مشرب بيرة، لكن كانت في الواقع مؤجرة للحركة. وكانت ليلةً مجنونة إلى الصباح. في الداخل، كنت أفكر بأنَّ لي هنا أختاً كبرى عجيبةً وغير عادية.

وسواء كانت فتاة فندقي أو نصيرة الحزب هذه، فقد شاءت الظروف وفي الأحوال جميعها أن أقابلهما كلَّ يوم. لم أكن قادراً على الهرب منهما كما هربتُ من نساء كثيرات قبل ذلك. ثم دون إرادة ويقلب دائم القلق ومستسلماً، بذلت كلَّ ما أستطيع كي أبقى تحت رعاية هاتين المرأتين في وقت واحد؛ لكن كنت كما في السابق مكبّلاً بضيق ذات اليد.

وفي الفترة نفسها تقريباً، أدت لي نادلة تعمل في مقهى كبير بحي «كينزا» خدمة غير متوقعة . لم نكن قد التقينا إلاّ مرّة واحدة. مع ذلك، بقيت أثناءها عاجزاً عن الحركة، منجذباً نحوها بقوة لا تقاوم لما قدمته لي، وقد غشي روحي خوف غامض. في ذلك العهد، ودون اللجوء إلى «هوريكي» كدليل، كنت أتجرأ على ركوب الترامواي وحدي، والذهاب إلى «كابو ـ كيزا» وحدي، الدخول إلى المقهى مرتدياً كيمونو مزخرفاً وحدي، متظاهراً بطلاقة المحيا واللا مبالاة قليلاً.

أمانُ النّاس وقوتهم الوحشية، لم يتوقفا عن تغذية الشك والخوف والألم في أعماقي. في الظاهر فقط وبالتدريج استطعت أن أوجه إلى

الآخرين التحيات بوجه جدي (أنا مخطئ: لم أستطع توجيه التحيات دون أن أرفقها بالابتسامة المتعبة، ابتسامة البهلول المسكين المهزوم). تلك التحيات الملقاة باضطراب وشرود، بكم وبماذا تدين للتحركات التي قمت بها ذات اليمين وذات الشمال من أجل الحركة التي تحدثت عنها؟ بكم وبماذا تدين للنساء؟ أو للساكي؟ لكن بفضل افتقاري إلى المال تحديداً بدأت الحصول على هذا الأمان.

كل شيء كان مرعباً بالنسبة إليَّ، ولاسيما المقاهي الكبرى حيث كان يفزعني حشد الزبائن وحشد النادلين والنادلات. لكن لو استطعت الانسلال بينهم، فهل كنت سأتوصل إلى تهدئة روحي الدائمة العذاب؟ دخلت إلى مقهى كبير بحي «كينزا» وحدي وليس معي سوى عشر ينات فقط. قلت للنادلة وأنا أبتسم:

ـ ليس لي سوى عشر ينات. لا تنسي ذلك!.

ـ لا تهتم. ولا عليك.

كشفتُ في كلماتها لهجةً منطقةِ «كانساي»[1].

شيء غريب. وقعت تلك الكلمات في قلبي الذي ينبض موقع المُسكِّن، ليس لأنها رفعت عني همَّ أن لا نقود لدي، بل لأن وجودي إلى جانب هذه المرأة أدى إلى تلاشي قلقي تماماً

شربت السَّاكي وأنا مطمئن البال. لم تعد بي رغبةٌ لتمثيل دور البهلول. ودون السعي لإخفاء طبيعتي الحقيقية، الموحشة الصموتة، كنت أشرب بصمت.

---

(1) منطقة مدينة «كيوتو»، عاصمة اليابان سابقاً، وهي عكس «كانتو»، منطقة مدينة طوكيو.

عرضت عليَّ ضروباً متعددة من الطعام.

- أتحب هذه الأشياء؟

لكنني هززت بالرفض.

- ساكي فقط؟. وأنا أيضاً سأشرب.

كان ذل في الخريف. والليل كان بارداً. رحت كما طلبت مني «تسونيكو» (أذكر أنها كانت تدعى هكذا، لكن ذكرى اسم عائلتها تلاشت من ذاكرتي وليست أكيدة. وصل بي الأمر إلى أنني لا أتذكر كنية من حاولت الانتحار معها)، أنتظرها وأنا آكل سوشي[1] غير لذيذة جداً على بسطة بائع متجول يقف وراء حي «كينزا». حتى وإن نسيت اسم ذلك البائع، فإنني لا أزال أتذكر جيداً النوعية الرديئة لتلك السوشي، ولا أعرف لماذا. كان لهذا العجوز وجه حنش قبيح، وكان حليق الرأس تماماً مثل راهب بوذي، ولم يكن يتوقف عن هز رأسه. أتذكره كأنه أمام ناظري، وأتذكر أيضاً طريقته البارعة، لكن غير النظيفة أبداً، في تقديم السوشي لزبائنه. بعد ذلك بسنوات، رأيت مرّتين أو ثلاث مرّات، في الترامواي أو في مكان آخر، وجوهاً أقول عنها بعد تفكير: «عجباً! لقد رأيت هذا الوجه سابقاً!»، أقول ذلك وأنا أفكّر بذلك البائع. عندما أعود إلى ذلك العهد، أتذكر أنه كانت لي ابتسامة مُرَّةٌ. أما الآن، وقد أمّحى من ذاكرتي اسم بائع السوشي العجوز، فإنني أتذكر وجهه بدقة كما لو كانت صورته إمامي، فقط لأنني أتذكر رداءة السوشي التي كان يبيعها آنذاك، وأتذكر البرد والألم

(1) السُّوشي: لقمة رز مسلوق، فاتر قليلاً، محضّر بطريقة خاصة لأكله مع قطع من السمك النيء، أو مع أعشاب بحرية غير مطبوخة. يأخذ البائع كمية صغيرة من الرز المذكور ويكوّرها بيده ثم يضع فوقها قطعة السَّمك النيئة ويقدمها للمستهلك. يجب أن يكون الرز والسّمك طازجين ولا بدَّ من نظافة يدِ البائع.

اللذين كنت أشعر بهما. سابقاً، وفي الحوانيت التي تقدم أرقى أنواع السوشي، وحتى عندما أدعى إليها، لم أفكر مرّة واحدة بأنها من النوع اللّذيذ. كانت كلّ قطعة جسيمةً كالإبهام لحدّ أن المرء لا يعرف هل باستطاعته ابتلاعها.

كانت تلك المرأة قد استأجرت الطابق الأول في بيت شخص يدعى «أوي ـ سان». داخل الغرفة حيث لم أكن أخفي كآبة تطغى على قلبي أصابني ألم أسنان رهيب. فرحتُ أشرب الشاي وأنا أضغط خدي بيدي. هذا الموقف لم ينفّر «تسونيكو». بالعكس، أظهرت لي مودة واضحة. كانت تروح وتجيء في الحياة، مزوبِعةً مثلَ ورقة ميتة أسقطتها رياح الخريف الباردة، وشعورها أنها وحيدة في هذا العالم.

وبينما كنت أستلقي إلى جانبها، أخبرتني بأنها تكبرني بسنتين وبأن مسقط رأسها هو «هيروشيما». «لي زوج كان حلاقاً في تلك المدينة. وفي ربيع السنة الماضية تركنا البيت بسرعة وجئنا إلى طوكيو. غير أن زوجي عمل أشياء غير قانونية. فاتهم بالاحتيال وأُدخل السجن حيث هو الآن. وفي كلّ يوم أذهب إليه لأحمل له شيئاً ما. غير أنني سأتوقف اعتباراً من يوم غد...». لكن ماذا تعني بالنسبة إليّ هذه القصص؟ ليست لدي أية فضولية فيما يخص حكايات تدور حول حياة النّاس. هل هذا لأن طريقة حكي «تسونيكو» كانت رديئة، هل هذا لأنني لم أر جيداً أهمية قصتها؟ أياً كان الأمر، فالرياح قد حملت إليّ كثيراً من هذه الحكايات وكنت لا أبالي على الدوام.

أجد غريباً، عجيباً، أنّها لم تقل مرّة واحدة: «أشعر بأني وحيدة على هذه الأرض...». كان من المؤكد أن هذه الكلمات سوف توقظ الشفقة في داخلي أكثر من سيل دموع على مصير النساء. مع ذلك، وعلى الرّغم من أن هذه الكلمات لم تخرج أبداً من شفتيها، فإن

جسدها، بالكامل، كان مغطى بروائح عزلة فظيعة. ولدى ملامسته والاحتكاك به، جسدي هو الآخر كان يتدثر بروائح سوداويةٍ حارقة أحملها في داخلي، كانت كلٌ هذه الروائح والأبخرة تتمازج فيما بينها. ومثل «ورقة ميتة تهبط إلى أعماق المياه كي تستقر على الصخرة»، كنت جاهزاً للابتعاد خوفاً وقلقاً.

النّوم بعمق وبهدوء بال على صدر العاهرات (أولاً: هؤلاء مرحات) كان شيئاً مختلفاً تماماً عن هذه الساعات قرب «تسونيكو». وقضاء ليلة مع زوجة رجل متهم بالاحتيال، كان بالنسبة إليّ قضاء ليلة من التحرر السعيد (أقول: سعيد. لكن الكلمة مضطربة هنا مع أنني أكتبها بلا تردد. ولا نعثر عليها مرتين في هذه الدفاتر).

كانت ليلة فريدة. استيقظتُ صباحاً وقفزت من السرير متنكراً من جديد على هيئة بهلول طائش. حتى الحشرة الضعيفة تخشى السعادة. نسحقها بقطعة من القطن. السعادة، تستطيع السعادة أن تجرح. كنت أريد الانفصال عنها بسرعة دون الانتظار قبل أن أجرح؛ كنت أريد، وبسرعة، أن أتدثر بوشاح دخان بهلول حقيقي.

يقال: «لا فلوسَ، إذن لا حب»، أليس كذلك؟ حسناً، إن المعنى الذي يُعطى لهذا المثل يتناقض مع الحقيقة. لا ينبغي أن نقول إن رجلاً بلا نقود ترفضه النساء. وقاموس «كانازاوا» الكبير يقدم تفسيراً لذلك: عندما لا يعود للرجل نقود، فإن الوهن يصيب عزيمته، ولا تعود لديه قوة للضحك. يصبح غيوراً بشكل غريب. وأخيراً يقع إلى الدرك الأسفل من اليأس. فيرفض النساء. هذه حالة مريعة. وأفهم الحالة النفسية هذه.

أتذكر بدقة ووضوح أن هذه الكلمات المجنونة جعلت «تسونيكو» تنفجر بالضحك. كان لا ينبغي البقاء وقتاً طويلاً. وعندما بدأ القلق

يخيم عليَّ، خرجت مبتعداً حتى دون أن أغسل وجهي. لكن الكلمات الفظة، الوحشية، التي نطقت بها آنذاك: «لا فلوس، إذن لا حب» بقيت راسخة في ذاكرتي..

انقضى شهر ولم ألتقِ ولية نعمتي ذات مساء. وبمرور الأيام، صارت سعادتي بالانفصال عنها تتلاشى بالتدريج. ذعرت لقبولي ذلك المعروف البسيط. فشعرت بدين رهيب التزمت به دون أن أكون مضطراً إليه. بدأت أقلق شيئاً فشيئاً، وهذا أمر طبيعي، لأنني تركت كلَّ حسابي على «تسونيكو». كنت أعتقد أنها تلاحقني، مثلها مثل فتاة الفندق ومثل طالبة المعهد العالي للبنات. ومع أنني ابتعدت عنها بسرعة، غير أن خوفي منها لم يتوقف. أكثر من ذلك، عندما ألتقي بامرأة كنت قد نمت معها سابقاً، فإني أتخيل أنها ستغضب فجأة وتلتهب مثل نار حامية. وطالما كان يزعجني جداً أن ألتقي بها من جديد، كنت أتجنب الذهاب إلى حي «كينزا» باستمرار. بين اللحظة التي نامت فيها امرأة مع رجل واللحظةِ التي تنهض فيها صباحاً، تقسم الوجود ببراعة إلى قسمين دون الحفاظ على الترابط الأكثر صلابة بين هاتين اللحظتين، وكأنها قد نسيت كلَّ شيء. حتى ذلك العهد، لم أكن بعدُ قادراً على فهم هذه الظاهرة المدهشة.

ذات مساء وفي نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، كنا، «هوريكي» وأنا، نشرب نوعاً رخيصاً من الساكي على بسطة بياع متجول في حي «كاندا». وبعد أن تركنا البسطة اقترح رفيق السوء أن نذهب للشراب من جديد في مكان آخر. لم يعد لدينا نقود، لكنه أصرّ:

ـ «سنشرب! سنشرب!» في ذلك العهد، كان كبدي يتضخم عندما أسكر. فقلت له:

ـ حسناً. سآخذك إلى بلد الأحلام إذاً! لا تندهش: نذهب إلى «بحيرة الساكي وغابة النساء».

ـ مقهى ـ بار؟.

ـ نعم.

ـ فلنذهب.

وبناء عليه، أخذنا الترامواي في اتجاه المدينة. فصرخ «هوريكي» فرحاً:

ـ هذا المساء بي عطش لامرأة. فهل أستطيع أن أقبِّل نادلة؟ لم أكن أحب كلام السكران «هوريكي» وكان يعرف ذلك. لكنه ألحَّ.

ـ هل أستطيع؟ بالتأكيد سوف أقبِّل النادلة التي ستجلس إلى جانبي. هل أستطيع؟.

ـ من المحتمل أن ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة إليها.

ـ شكراً! أنا عطش لامرأة.

ثم نزلنا في الحي الرابع من «كينزا». دخلنا إلى مقهى الكبير الذي كان يُدعى «بحيرة الساكي وغابة النساء» وطلبنا «تسونيكو»، قارب النجاة: كنا تقريباً بلا أي نقود. كان هناك صف مقاعد فارغة تساقطنا عليها، وفي تلك اللحظة أقبلت «تسونيكو» مسرعة مع نادلة . صدمني ذلك، فـ«تسونيكو» أخرى. أخذت هذه الأخيرة مكاناً بالقرب مني. و«تسونيكو» جلست سوف تُقَبَّلُ بسرعة. بتثاقل إلى جانب «هوريكي»

لم أكن غيوراً. فرغبة الامتلاك عندي كانت ضعيفة باستمرار، وعندما كنت أشعر بغيرة شديدة، لم أكن أجد الطاقة الكافية للشجار مع رجلٍ من أجل الدفاع عن حقي في الامتلاك. فيما بعد، ولما خانتني امرأة (غير شرعية) ذهبت لحد الصمت.

بقدر الإمكان لا أتدخل بشؤون الآخرين. لأنني كنت أخاف السير فوق أرضية زلقة جداً. «تسونيكو» وأنا، لم تكن بيننا علاقات حميمية إلاّ لليلة واحدة. فهي ليست ملكاً لي. ولا حقَّ لدي في الغيرة عليها. ومع ذلك أحسست بصدمة. كان حظ «تسونيكو» التي تتلقى أمام ناظري قبلات «هوريكي» المندفعة، يستحق الرثاء. وكان لا بدَّ لها، وقد لوثها «هوريكي»، أن تنفصل عني. أضف إلى أنني لم أشعر بأية رغبة شديدة للاحتفاظ بها. نعم، ها قد انتهى كل شيء: انتفاضتي لرؤية تعاسة هذه المرأة لم تدم أكثر من طرفة عين وسرعان ما تلاشت. استسلمت بوداعة. وبعد أن نقّلت ناظري بين «تسونيكو» و«هوريكي»، ضحكت عن طيب خاطر.

مع ذلك، ازداد الموقف سوءاً بطريقة مفاجئة.

ـ قال «هوريكي» عابساً من الغضب: يكفي، لقد مللت! حتى بالنسبة إليَّ، فإنَّ بائسة كهذه...

توقف عن الكلام منزعجاً. شبك ذراعيه، وراح يحدق إلى «تسونيكو» مبتسماً ابتسامة ساخرة.

بصوت منخفض قلت لـ «تسونيكو»:

ـ مزيداً من الساكي! لكن لا نقود لدي...

والحالة هذه، كنت أرغب بالشراب لدرجة الاستحمام بالساكي. إنه لشيء عادي وبلا أهمية، في نظر النّاس، أن تتلقى «تسونيكو» قبلات سكران، لكنها عوملت كبائسة. وكان هذا بالنسبة إليَّ مثل قصفة رعدٍ يهشمني. شربت ساكي، مزيداً من الساكي، شربت أكثر مما كنت قد شربت سابقاً. دختُ لحد الصمم. تقاطع نظري مع نظر «تسونيكو» وتبادلنا ابتسامة صغيرة وحزينة. عندما فكرت بهذه الكلمات التي نطقها «هوريكي»: «هذه المرأة متعبة بشكل غريب، ويفوح البؤس منها»،

وفي الوقت نفسه بما يربط بين كائنين فقيرين، استيقظ في داخلي الإحساس بذلك الرابط. فأصبحت «تسونيكو» عزيزة عليَّ وأدركت للمرّة الأولى في حياتي أن شعوراً بالحب، واقعياً وإن كان ضعيفاً، قد ولد في قلبي. (أعتقد، ولحد الآن، أن التناقض بين الأغنياء والفقراء، على عاديته، يبقى واحداً من الموضوعات الأبدية للمآسي).

تقيأت، وفقدت صوابي، للمرّة الأولى في حياتي يلغيني السُكر إلى هذا الحد.

عندما صحوت وجدت «تسونيكو» جالسة فوق رأسي. يبدو أنني قد نمت في غرفة الطابق الأول من بيت «أوي ـ سان».

ـ «لا فلوس، إذن لا حبّ!». ماذا كنت تقصد بذلك؟ هل كنت تمزح، أم كنت جاداً؟ إنه لأمر صعب ومعقد. عائلتك لا تستطيع أن تساعدك؟.

ـ لا جدوى من فعل أي شيء

ـ «تسونيكو» هي الأخرى نامت. في الصباح، خرجت من فمها وللمرة الأولى لفظة «الموت». كانت متعبة من وجودها في هذا العالم. أما أنا، خوفي من الآخرين، متاعبي، النقود، الحركة التي تحدثت عنها، النساء، الدراسة... كلُ هذا لم تعد لي أية رغبة فيه. فوافقت «تسونيكو» على مشروعها دون أي هم.

مع ذلك، كنت في حينها عاجزاً عن إيجاد معنى واقعي لهذه الكلمات: «أريد أن أموت». فكرة اللّهو والتسلية كانت خفية بين الحروف.

ذلك الصباح، تسكعنا في منطقة «أساكوسا» السادسة. دخلنا إلى صالون شاي وشربنا الحليب.

ـ حاسبْ، لو سمحتَ.

أخرجت محفظتي من كمّ معطفي. فتحتها وكان فيها ثلاث قطع نحاسية. اجتاحتني، إضافة إلى الخزي والخجل، أفكار مأساوية. رأيت بسرعة البرق ما كنت أملكه: في غرفة الفندق، لم يكن لدي سوى بذلتي المدرسية وفراشي. ثم لن يبقى في تلك الغرفة الجرداء شيء واحد تقبله مكاتب الدَّين والتسليف. وباستثناء ذلك، لم يعد عندي سوى كيمونو من الحرير السميك كنت أرتديه عادةً، ومعطف أيضاً.

هكذا كان الواقع. أدركت بوضوح أنه لم يكن بإمكاني الاستمرار في الحياة.

ـ آه، ليس لديك إلاّ هذا؟.

قيلت هذه الكلمات بنبرة لا مبالية، لكنها اخترقتني حتى النخاع عبر جرح عميق عميق. لأوّل مرّة يجرحني صوت كان يريد أن يحبني. ما كنت أملكه لا قيمة له. ثلاث قطع نحاسية لا تمثّل شيئاً على الإطلاق. كابدت إذلالاً غريباً لم أجرّبه أبداً لحد ذلك الوقت. إذلالٌ لا أستطيع احتماله بالبقاء على قيد الحياة. آنذاك، لم أكن الطفل الغني الذي قطع مع العائلة. وفي تلك اللحظة تحددت أفكاري بدقة وعزمت على الموت حقاً.

تلك الليلة، ألقينا بأنفسنا إلى البحر في منطقة «كاماكورا». فكّت «تسونيكو» حزامها، طوته ثم وضعته على صخرة. خلعتُ معطفي، طويته ثم وضعته جانباً ورمينا بأنفسنا معاً إلى البحر.

ماتت «تسونيكو». ونجوت أنا وحدي.

كنت طالباً في المعهد العالي واسم أبي كان معروفاً. تناولت الصحف الحدث بدعاية كبيرة.

استقبلني مشفى قريب من البحر. وأسرع أحد أقربائي من البلدة

ليهتمّ بأشياء كثيرة تخصني، ثم صرّح لي قبل رحيله بأنه لا يعلم إذا كنتُ سوف أطرد من العائلة، لأن الجميع، بدءاً من أبي قد غضبوا غضباً جنونياً. ومنذ ذلك الحدث، لم أتوقف عن البكاء والنحيب مفكراً بحبيبتي الغالية «تسونيكو». فمن بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم، لم يكن هناك إلاّ «تسونيكو» ـ «بائسة من أجل فقراء» ـ قد أحببتها حقاً.

تلقيت من فتاة الفندق الشّابة رسالة طويلة خطت خمسين قصيدة «تانكا» (كلّ قصيدة مؤلفة من واحد وثلاثين مقطعاً صوتياً: 5ـ 7 ـ 5 ـ 7 ـ 7.م). خمسون قصيدة تبدأ جميعها بشكل غريب بـ: «عِشْ!». بحبور كانت تدخل الممرضاتُ إلى غرفتي والابتسامة فوق الشفاه. وكان بعضهن يشدّ على يدي خلسة. وفي المشفى كشف أنني مصاب بخلل في رئتي اليسرى، الأمر الذي كان في غاية الفائدة بالنسبة إليّ. ثم أخذت إلى مركز الشرطة مُتّهماً بالتحريض على الانتحار. وهناك عوملت كمريض ثم وضعت تحت مراقبة خاصة في المشفى.

في منتصف اللّيل، وفي غرفة الحراسة المجاورة لغرفة المرضى الخاضعين لرقابة خاصة، قام العجوز المناوب في الحراسة بجولته المعتادة، ثم فتح باب الاتصال بين الغرفتين وناداني:

ـ قل، أنتَ ما بك! لا بدّ أنك تشعر بالبرد؟ تعال وتدفأ هنا.

فدخلت غرفة الحراسة منقبض القلب مكرهاً. جلست على كرسي ورحت أتدفأ على موقد الجمر.

ـ لا بدّ أنك كنت تحب كثيراً تلك المرأة التي ماتت؟.

ـ أجبت بصوت خافت: نعم.

ـ إنّها قصة حب...

وشيئاً فشيئاً أخذ العجوز مظهراً جدياً.

- أين بدأت علاقتك مع تلك المرأة؟.

كان يستجوبني بنبرة قاضٍ ويعاملني بشيء من الازدراء الذي نبديه لأحاديث الأطفال. لقد تصنع، وهو يتكلّم على الأحداث الطارئة في تلك الليلة الخريفية، إظهار ملامح قاضي التحقيق. كان ذلك مناورة لجعلي أروي ذكريات ماجنة ودقيقة. أدركت بسرعة إلى أين يريد الوصول، وكان عليَّ أن أبذل كلَّ جهدي كي لا أنفر منه. كنتُ أعلم أن لا أهمية لرفضي الإجابة على أسئلة الاستجواب شبه الرسمي لهذا الحارس العجوز جميعها. مع ذلك، ومن أجل تخفيف مضايقات تلك اللّيلة الخريفية الطويلة، أظهرت حتى النهاية وجهاً لا يترك مجالاً للشك في صدقي. والواقع، كنت مقتنعاً بأن درجة شدة العقاب الذي أتجشمه متعلقة إلى حد ما برأي هذا الحارس العجوز. فصرّحت له تصريحاً يشبع جيداً فضوله الشهواني الشبق.

- هِمْ، هِمْ! بهذا، فهمت الجوهري. لقد أجبت على كلها الأسئلة بصدق وصراحة. يمكنك التأكد من كتماني وسريّتي.

- لك جزيل الشكر. وأعتمد على مساعدتك.

كانت مسرحية ممتازة. والأداء كان مفروضاً عليَّ.

عندما جاء الصباح، استدعيتُ إلى مخفر الشرطة. هذه المرة، كان الاستجواب رسمياً.

فتح الباب، أثناء دخولي إلى مكتب رئيس المخفر:

- آه! يا للصبي الجميل! ليست غلطتك! بل هي أمك التي أخطأت إذ أنجبت صبياً جميلاً!.

كان رئيس المخفر ذا سحنة برونزية فاتحة، وكان لا يزال شاباً يترك الانطباع بأنه خرج لتوه من الجامعة. ولدى استقبالي فجأة وبهذا الشكل، ظهرت على نصف وجهي بقع كبيرة من النّمش. وأحسست بأنني مشوّه، قبيح، مثير للشفقة.

كان استجواب رئيس المخفر هذا، الشبيه بأحد أبطال الجودو أو المسايفة، بسيطاً في الحقيقة، ومختلفاً كلّ الاختلاف عن الامتحان السرّي ذي الطابع الجنسي الذي أخضعني له الشرطي العجوز في منتصف الليل. وبانتهاء الاستجواب، قال لي رئيس المخفر وهو يملأ أوراقاً موجهة إلى وكيل النيابة:

ـ يجب أن تحافظ على جسدك بطريقة جيدة، أليس كذلك؟ هل تبصق دماً؟.

في ذلك الصباح، سعلت بطريقة غير مفهومة. ولما غطيت فمي بمنديلي ظهرت بقع حمراء صغيرة من الدم فوقه. في الليلة الماضية تحسست دمّلة كانت قد تشكلت تحت الأذن، وكان هذا هو الدم الذي خرج منها. مع ذلك، فكرت بأنه من المناسب ألا أكشف ذلك. أطرقت في الأرض وأجبت بكامل البراءة.

ـ نعم.

كان رئيس المخفر قد انتهى من كتابة أوراقه:

ـ هل ستكون هناك ملاحقة قضائية أم لا، هذا سوف يقرره وكيل النيابة. لكن من المستحسن أن يطلب اليوم من النيابة العامة في «يوكوهاما» أن تُعْلِمَ برقياً أو هاتفياً شخصاً يكفلك. ولا بدَّ أن لك أحداً ما يعنى بك، ويجيب لأجلك.

خطر لي اسم بائع كتب قديمة ومؤلفات للخط، كان يتردد على بيت أبي في طوكيو. إنه من بلدتنا ويدعى «شيبوتا». عازب وفي الأربعين من عمره. كان وكيلي في المدرسة. وبسبب وجهه، ولاسيما عينيه، قيل إنه يشبه سمكة موسى. كان أبي يدعوه «هيرامي» (السمكة) وأنا أيضاً اعتدت على تسميته هكذا.

أخذت دليل الهاتف الموجود لدى رئيس المخفر، وبحثت فيه عن رقم بيت «هيرامي». وجدت الرقم واتصلت بـ «هيرامي». رجوته أن يأتي إلى النيابة العامة في «يوكوهاما»، فأجاب بنبرة جليلة اعتقدت معها بأنه رجل آخر. على أية حال، قَبِلَ وجاء.

ـ اسمعوا. يجب تطهير جهاز الهاتف مباشرةً، لأن هذا القبضاي يبصق دماً.

أعطى رئيس المخفر هذا الأمر للشرطة بصوت عال. وبما أنني كنت جالساً في غرفة الحراسة حيث قد عدت، فقد وصل إلى أذني.

تجاوز الوقت الساعة الثانية عشرة، فلُفَّ حول جسدي حبلٌ من القنب، وأُخفي تحت معطفي، لكن طرفه أمسك به الشرطي الأكثر شباباً بين الجميع. واتجهت معه في الترامواي إلى «يوكوهاما».

مع ذلك، لم أكن مضطرباً على الإطلاق. غرفة الحراسة هذه، وتعاطف الشرطي العجوز معي... آه! كيف وصلت إلى هنا! وكيف حدث لي ذلك! كنت مقيداً كمذنب، ومع ذلك كنت أتنفس بحرية. وفي الوقت الذي أكتب فيه ذكريات تلك الساعات أشعر بارتياح شديد.

لكن بين هذه الذكريات التي أعود إليها بانفعال، هناك ذكرى لا يمكنني العودة إليها دون أن تسري في جسدي قشعريرة ما. إنها ذكرى رعونة بائسة لا أنساها ما حييت. في غرفة النيابة العامة، تلك الغرفة

الموحشة قليلاً، خضعت لاستجواب بسيط من قبل وكيل النيابة. كان هذا الأخير رجلاً في الأربعين من عمره، ويتسم بالهدوء (حتى ولو قيل عني بأن لي وجهاً جميلاً، نستطيع التأكيد، ودون خطأ، بأنه وجهُ فاسقٍ. وللعلم، أستطيع القول إن وجه وكيل النيابة كان ذا جمال لائق يدلّ على الذكاء والهدوء، ويعكس شخصية بعيدةً تماماً عن التفاهات). ودون تحفظ أدليت بإفادتي، عندما بدأتُ فجأة بالسّعال. فأخرجت منديلي من كمّ معطفي. ما إن لمحت الدم حتى خطرت لي خدعة مشينة اعتقدت أنها قد تفيدني. سعلت بتصنُّع سعلتين إحم! إحم! إضافيتين وصوريتين. ثم مسحت فمي بمنديلي. وألقيت نظرة سريعة على وجه وكيل النيابة الذي سرعان ما لاحظ وأردف قائلاً:

ـ هل هذا حقيقي؟

ابتسم ابتسامة باهتة دون أي انفعال.

اجتاحني عرق بارد. أو بالأحرى، أتذكر الآن أن رغبة سريعة بالرقص اجتاحتني. ولا أبالغ بالقول أنني شعرت بصدمة أشد من تلك التي شعرت بها عندما صرخ ذلك الأبله «تاكيتشي» من ورائي قائلاً: «إنّها خدعة! وقد تعمدتَ ذلك!»؟ إنهما الحالتان الوحيدتان اللتان سجلت خلالهما أكبر إخفاق في حياتي كمتصنِّع متظاهر. كنت أفضل سماع إدانتي بالسجن لمدة عشر سنوات، على أن أحتمل الازدراء الهادئ لوكيل النيابة. أعتقد أحياناً أن ذلك كان أنسب لي.

أُوقِفَت الملاحقة القضائية. ومع ذلك لم أبتهج، بل شعرت بأنني بائس. ثم جلست على مقعد أمام مدخل النيابة العامة بانتظار كفيلي «هيرامي».

ومن شباك عالٍ، رحت ألمح خيوط الشمس الغاربة في السماء حيث كان طيران النَوارس يرسم هذا الحرف الصيني 女 أي «امرأة».

الدفتر الثالث

ـ 1 ـ

صدقت إحدى نبوءات «تاكيتشي» وأخطأت أخرى. فالنبوءة الأولى: «ستكون محبوباً» تحققت دون أن أستحقها، أما الثانية: «ستكون فناناً عظيماً»، فهي من وحي العرفان بالجميل، وهي الشكر الذي أخطأ هدفه بالتأكيد. بالكاد كنت رساماً كاريكاتورياً بين بين، وغير معروف، أرسم لمجلات من الدرجة الأخيرة.

بسبب قضية «كاماكورا» طردت من المعهد العالي. ورحتُ أعيش في غرفة ضيقة مساحتها ثلاث بوريات فقط، في الطابق الأول من بيت «هيرامي». وكلَّ شهر كان يأتيني من البلدة أزهد مبلغ من النقود، لكن لم يكن يرسل إليَّ مباشرة، كان يأتي خفية إلى «هيرامي» (كان أخي الكبير والعائلة معه هم الذين يفعلون ذلك دون معرفة أبي). لم أكن أتلقى شيئاً آخر أبداً. وكانت العلاقات مع البلدة مقطوعة تماماً. لذلك كان «هيرامي» ذا مزاج سيء دوماً. وكنت عبثاً أحاول الابتسام له بمودة، أما هو فلا يبتسم أبداً. هل يستطيع النّاس أن يتغيرا هكذا خلال لحظة ببساطة؟ كنت أفكر بذلك عندما قال لي «هيرامي» بصوت لا مجاملة فيه، أو بالأحرى بصوت مضحك:

ـ ينبغي عدم الخروج! في النهاية... أرجوك لا تخرج!.

لم يكن يقول لي إلاّ هذا.

«هيرامي» كان يخشى عليَّ من الانتحار، ولا يكفُّ عن مراقبتي. في العمق، كان يراني أتعقب آثار «تسونيكو» كي ألقي بنفسي إلى البحر، لذا كان يمنعني بقسوة من الخروج. ثمَّ لم أكن أشرب ولا أدخن. كنت من الصباح إلى المساء متلبداً تحت غطاء مدفأتي الصغيرة، في غرفة ضيقة من الطابق الأول مساحتها ثلاث بوريات، أطالع مجلات قديمة دون أية جدوى، وأعيش حياة تافهة حمقاء، حتى أنني فقدت القدرة على الانتحار.

كان منزل «هيرمي» قريباً من مشفى «أوكوبو» الخاص. وعلى اللافتة يمكن أن نقرأ: «ساريو ـ ين[1]. كتب مستعملة ودفاتر لتعليم الخط». كان منزلاً له مدخلان. للمخزن واجهة ضيقة، والداخل مغطى بالغبار ولا يحتوي إلاّ على عدد قليل من الأشياء القديمة. (في الواقع، لم تكن تجارة هذه الأشياء القديمة سوى ذريعة بالنسبة إلى هيرامي. كان وسيطاً بارعاً بين هواة مزعومين «حافظوا بحرص» على بعض الأشياء، وبين هواة مزعومين آخرين يرغبون اقتناء هذه الأشياء. يبدو أنه كان يربح مالاً كثيراً من هذه المهنة). لم يكن يمكث إطلاقاً، إذا صحَّ التعبير، في المخزن. فمنذ الصباح يكشف عن وجه عبوس. يتكلم بسرعة واقتضاب، تاركاً لحراسة المخزن موظفاً وحيداً عمره بين السابعة عشرة والثامنة عشرة. عندما كان يشعر هذا الأخير بوقت فراغ، سرعان ما يذهب ليلعب كرة اليد مع أولاد الجيران، بدلاً من القيام على حراستي. كان يعتقد أن الطفيلي الذي يعيش في الطابق الأول أبله تماماً أو مجنون؛ وكان يسمعني كلمات تفوح منها مواعظ إنسان راشد. وبما أنه لم تكن في طبيعتي القدرة على معارضته، كنت أتظاهر بالتعب أو بالموافقة، فأحني رأسي جانباً وأطيع. كان هذا

(1) يعني: «في حديقة التنين الأخضر».

المستخدم ابناً شرعياً لـ «شيبوتا». لكن، ويا للغرابة، لم يكونا يتناديان أمام الآخرين بـ: يا أبي، يا بني. علاوة على ذلك، وكما هو معروف لدى الجيران أن «شيبوتا» كان عازباً دوماً، فلا بدَّ أن يكون له أسبابه لإخفاء أبوته عن الجميع. سابقاً، كنت قد سمعت داخل عائلتي شائعات حول هذا الموضوع. لكن بما أن مشكلات الآخرين لا تعنيني قطعاً ولا تهمني، فلم أعرف شيئاً دقيقاً عن الأمر.

مع ذلك، كانت عينا هذا المستخدم تستدعيان، وبشكل غريب، عيني سمكة. لذا من الممكن حقاً أن يكون ابناً شرعياً لـ «هيرامي». على أية حال، كان هذا الأب وهذا الابن يعيشان حياة منعزلة جداً. مساءً، وفي ساعة متأخرة، وخفية عني أنا الموجود في الطابق الأول، كانا يطلبان حساء الحنطة بالشعيرية ويأكلانه بصمت.

وذات مساء في أواخر شهر أيار، كان «هيرامي» قد أفاد على ما يبدو من عملية رابحة لم يكن ينتظرها، أو لعلّه قام بتدبيرٍ ما (حتى ولو صحَّ هذان التخمينان، فمن المحتمل أن تكون هناك أسباب تافهة لا علاقة لها بهذه الفرضيات)، فدعاني إلى غرفة تحت الدرج، مما أثار دهشتي. كانت توجد على الطاولة زجاجات ساكي وقطع من السمك النيئ، ليس سمك موسى بل سمك التون. أعجبتني المأدبة، فشكرت ربَّ هذا البيت الذي قدّم قليلاً من الساكي للطفيلي البطّال.

ـ في النهاية، ماذا تنوي أن تعمل من الآن فصاعداً؟.

لم أجب بشيء. عَرَمَةٌ من السردين المجفف تنتصب في صحن، أخذت بعضها ورحت أحدّق في عيون هذه الأسماك الصغيرة الفضية اللّون. كنت أفكر متحسراً بذلك العهد الذي كنت أتسكّع فيه حتى مطلع الفجر وأنا سكران. تحسرت حتى على «هوريكي» تحسرت بعمق على الحرية. وفجأة بدأت البكاء بهدوء.

منذ وصولي إلى هذا البيت، حتى فرصة أن ألعب دور البهلول، لم تتح لي. كنت أعيش بين ازدراء «هيرامي» وازدراء مستخدمه. من جهته، كان «هيرامي» يتحاشى مناقشة طويلة وصريحة معي. وأنا أيضاً، لم تكن بي رغبة الركض وراءه كي أشكو. كنتُ وإلى حد ما أقرب إلى طفيلي أبله.

ـ إيقاف الملاحقة القضائية إجراء يفقد فاعليته عندما يكون الشخص قد اتهم من قبل بالعودة إلى الجريمة. في هذه الحالة، يجب أن تحرص على العيش حياة جديدة. إذا عدّلت نفسك، وإذا أردت من جانبك الكلام وبشكل جدي، على هذا الموضوع معي، فسوف أفكر بذلك أيضاً.

في طريقة حديث «هيرامي» ـ يجب أن أقول: في طريقة حديث ناس الأرض جميعهم ـ كنت أجد نقاطاً غامضة، وتعقيدات بارعة يمكن أن تكون أبواباً للهرب. كانت تزعجني احتياطاته الشديدة، غير المجدية برأيي، ومناوراته الكثيرة المقيتة. فأقول لنفسي: افعل ما تشاء، الأمر سيان عندي؛ أو أسخر من هذا كلّه؛ أو أوافق بصمت كأنني أقول: أفوّض أمري إليك بالكامل. بعبارة أخرى، أتخذ موقف الاستسلام والهزيمة. فيما بعد، أدركت أن كلّ شيء كان يمكن أن يُسوّى لو أن «هيرامي» تكلّم معي ببساطة. لقد آلمتني احتياطاته غير المجدية، وآلمني بشكل عام التفاخر الغامض والاهتمام بإنقاذ المظاهر التي يبديها النّاس جميعهم.

كان باستطاعة «هيرامي» أن يقول الآتي:

«سواء في مؤسسة عامة ـ حكومية أم في مؤسسة خاصة، سوف تذهب إلى المدرسة اعتباراً من نيسان القادم. بالنسبة إلى مصاريف الحياة اليومية، سوف تأتي من البلدة نقود كافية حالما تدخل المدرسة».

بعد وقت طويل فهمت. كان الوضع على الشكل الآتي: كـان علـي أن أتقيد بتعليماته فقط. مع ذلك، فإن المواربات الطويلـة الاحتراسـية التي استخدمها «هيرامي» والـتي أمقتـها، أفـضت إلى إعطـاء حيـاتي وجهة جديدة مختلفة تماماً.

ـ إذا لم يكن لديك شيء جديد تقترحه عليَّ، فليس هناك ما أقوم به.

ـ أقترحه عليك!.

في الحقيقة، لم يكن لدي أي شيء.

ـ يعني كأنك تخفي شيئاً ما؟.

ـ ماذا مثلاً؟.

ـ حسناً. ماذا تريد أن تفعل؟.

ـ هل أستطيع أن أعمل؟.

ـ إجمالاً، ما هي نواياك، بماذا تفكر؟.

ـ تكلمتُ على دخولي إلى المدرسة...

ـ تحتاج إلى نقود. مع ذلك، المشكلة ليست هنا. إنها تكمـن فيمـا تريده أنت وتنويه.

بما أن النقود يجب أن تأتي من البلدة، لماذا لم يتحـدث عنـها مـن بين الأشياء الأخرى؟ لقد بقيـت في حالـة غمـوض مطلـق، في حـين كنت كلمة واحدة تكفي لتحديد موقفي.

ـ ما رأيك؟ هل عبّرت عن رغبة ما بالنـسبة إلى مـستقبلك؟ أولئـك الذين سُوعدوا في الحياة لا يدركون كم يصعب على رجـل وحيـد أن يساعد الآخرين.

ـ معذرةً.

ـ هذا ما يسبب لي القلق في الحقيقة. وطالما قبلت استقبالك، فإنني أتمنى ألا تبقى في حالة نفسية مترددة وغير واضحة أبداً. أريد تعليمك كيف تسير مستقيماً في اتجاه ولادة جديدة باهرة. إذا أتيت إليّ وطلبت مني أن أناقش معك اقتراحاً جدياً يتعلق بتوجيه حياتك المستقبلية، فسوف تجدني جاهزاً للتجاوب معك. لكن ذلك سيكون مساعدة من «هيرامي»، الرجل الفقير، وإذا كنت ترغب برفاهية الماضي، فأنت مخطئ تماماً. لكن إذا كان قرارك حاسماً، وإذا كانت الوجهة التي تريد أن تعطيها لحياتك محددةً بوضوح وإذا كنت ترغب باستشارتي، أنا جاهز لمساعدتك على بدء حياتك من جديد، حتى وإن كنت لا أستطيع ذلك إلاّ بالتدريج. هل تفهم عني؟ تلك هي فكرتي. والخلاصة، ما هي نواياك؟.

ـ وإذا كنت لا أستطيع العيش في تلك الغرفة من الطابق الأول، وفكرت بالعمل...

ـ هل تتكلم بشكل جدي؟ حالياً، حتى وإن كنت متخرجاً من الجامعة الإمبراطورية...

ـ كلا. لا يتعلق الأمر بأن أكون موظفاً.

ـ إذاً ماذا؟.

ـ قلت بتصميم: الرسم...

ـ آه! يا للعجب!.

لا أستطيع أن أنسى انعكاس المكر الذي كان يصدر آنذاك من وجه «هيرامي» ضاحكاً ملء فيه ورقبته تغوص بين كتفيه. في تلك الضحكة كان يوجد ازدراء بالتأكيد، لكن كان يوجد شيء آخر أيضاً. وكما

نحاول في البحر أن نسبر بعض الأماكن ذات العمق المجهول، كذلك كانت هذه الابتسامة تحاول سبر أعماق حياة إنسان.

ـ في كلٍ هذا، لا يقود الكلام إلى شيء. لا عزم ولا حزم في نواياك. فكِّر. فكِّر بشكل جدي هذا المساء.

بعد أن سمعت هذا الكلام، صعدت إلى الطابق الأول كما لو كنت ملاحقاً، استلقيت في السرير، لكنَّ فكرةً واحدة متميزة لم تخطر لي. آنذاك، وعند بزوغ الفجر، هربت من بيت «هيرامي».

«بالتأكيد، سوف أعود هذا المساء. أذهب إلى عند صديق دونت اسمه في الأسفل، كي أناقش معه الوجهة التي يجب أن أعطيها لحياتي في المستقبل. لا تقلق إذاً». هذا ما كتبته بخط عريض على ورقة رسائل. ثم كتبت اسم وعنوان «هوريكي ـ ماساو»، وبناء على ذلك، غادرت المنزل خفية عند بزوغ الفجر.

لم تكن خطبة «هيرامي» الوعظية هي السبب في هربي من البيت منقبض الصدر. حقاً كنت، كما يقول «هيرمي»، بلا إرادة ودون أي هدف في الحياة. أضف إلى أنني كنت أشفق عليه لتجشمه عناء استقبالي. ولو حدث، بمصادفة عجيبة، أن أتخذ قراراً محدداً، فإن فكرة استلام راتب شهري من هذا المسكين «هيرامي» كي يساعدني على بناء حياتي من جديد، كانت مستحيلة الاحتمال بالنسبة إلي.

مع ذلك، لم أترك منزل «هيرامي» لأنني كنت أفكر جدياً بالذهاب إلى عند رجل مثل «هوريكي» كي أناقش معه وجهة حياتي في المستقبل. عندما تركت رسالتي، كنت أريد أن يطمئن «هيرامي» قليلاً، وإن لوقت قصير. (كان يمكن أن أكتب في هذه الرسالة بأنني أهرب بعيداً، مقلِّداً بذلك موضوع رواية بوليسية. رغبت بغموضٍ فعل

ذلك قليلاً. لكن الأصح هو القول إنني خفت أن أسبب صدمة لـ «هيرامي»، وأن أغرقه في الارتباك والحيرة والقلق. على أية حال، كان من المحتوم أن تكشف الحقيقة. وبسبب حالتي النفسية، خفت أن أغالي بقصتي فيحتقرني النّاس وأُدعى «كذاباً». لذلك أخفيت الحقيقة قليلاً جداً قائلاً لنفسي إنني لن أجني من جرّاء ذلك أية فائدة تقريباً. مع ذلك، كنت أخاف من الاختناق، إذا ما تخليت عن جوّي كبهلول ـ مهرج. ومع علمي بأن ذلك لن يكون في صالحي، فقد دفعني طبع المهرج البائس إلى لعبة مخفقة، هشة أدركت منذ البداية عدم جدواها. في غالب الأحيان، كنت ومن دون وعي أضيف إلى الحقيقة كلمة واحدة من ابتداعي. أولئك الذين يسميهم النّاس بـ «الشرفاء» استفادوا من هذه الحالة النفسية استفادة كبرى).

آنئذٍ، كتبت على قطعة من ورق الرسائل اسم وعنوان «هوريكي» كما خطرا إلى ذهني.

بعد أن تركت بيت «هيرامي»، ذهبت سيراً على الأقدام إلى «شينجيكو» حيث بعتُ كتاباً كان بحوزتي. ثم، بعد كل حساب، كنت مرتبكاً. كانت لي علاقات مودة مع النّاس جميعهم، لكن لم أجرِّب مرّة واحدة علاقة الصداقة. وبعيداً عن رفاق اللّهو مثل «هوريكي»، فإن الأشخاص الذين كنت أعرفهم لا يذكرونني إلاّ بالآلام. ولتخفيف هذه الآلام كنت ألعب دور البهلول ـ المهرج بصدق وحرارة، لكن أخرج منه منهكاً تماماً. وكنت إذا التقيت في الشارع بوجه أعرفه قليلاً، أو أعتقد فقط أنني أعرفه، كنت أرتعش وتأخذني رجفة قوية وضرب من الدوار؛ حتى ولو كان هذا الشخص يحبني، فأنا لم أكن قادراً على حبّه شخصياً. (من جهة أخرى، هل أنا قادر على حب أحد في العالم؟ هذا سؤال طرحته على نفسي كثيراً). أناس مثلي لا يستطيعون الارتباط

بعلاقات حميمية. لم أكن قادراً حتى على الزيارات. فباب بيت شخص ما، يسبب لي ضيقاً وإزعاجاً أكثر مما لو كان باب جهنم أو باب «الكوميديا الإلهية». فخلف هذا الباب، كنت أتخيل وجود حيوانات مجهولة، كريهة تشبه التنين المرعب الذي يعجُّ ويقرقر. أستطيع القول ودون مبالغة إن هذا الإحساس كان واقعياً بالنسبة إلي.

لم تكن لي علاقات مع أي شخص. وليس هناك شخص يمكنني الذهاب إليه... «هوريكي»!!.

من كلمة أطلقت هكذا في الهواء، يخرج قرار جدي. كنت قد كتبت في الرسالة التي تركتها أثناء رحيلي بأنني ذاهب لرؤية «هوريكي» في «أساكوسا». حتى ذلك الحين لم أكن قد ذهبت لزيارته أبداً. بشكل عام، كنت أستدعيه للمجيء بواسطة برقية. أما اليوم، ولأنني محبط إذ لا أملك ثمن إرسال برقية، ولأنني أعاني من مركب نقص، اعتقدت بأن «هوريكي» عندما يستلم البرقية قد لا يستجيب لندائي ويأتي. لذلك قررت القيام بزيارته، وهذا أمر مكلف بالنسبة إلي. ركبت الترامووي بألم. لكن ألم يكن هذا هو الأمل الوحيد المتبقي لي في هذا العالم؟ كانت أعصابي متوترة بشكل مزعج جداً حتى أنني شعرت بالبرد في ظهري.

كان «هوريكي» في بيته، في الطابق الأول من منزل يقع في نهاية شارع قديم وقذر. لم يكن يشغل إلاّ غرفة واحدة من ست بوريات. في الطابق الأرضي كان والداه العجوزان وعامل شاب يصنعون ثلاث قدّاتٍ جلدية للأحذية، يقطعونها ويسطحونها.

في ذلك اليوم، أظهر لي «هوريكي» وجهاً مدنياً جديداً. كان يبدو عليه المكر واللّباقة. قابلني، أنا الريفي الذي ينظر بعينين مدهوشتين، بأنانية باردة محتالة. لم يبدُ مستعداً لإجهاد نفسه في أحاديث طويلة.

ـ لقد فاجأتني حقاً! هل أذن لك والدك أم لا؟.

لم أقل له أنني قدمت بعد فراري من بيت «هيرامي». كذبت كالعادة وسيعرف «هوريكي» الحقيقة عما قريب، لكن كذبت.

ـ ماذا تعمل إذاً؟.

ـ أوه! لا وقت لدي للتسلية، أتدري. سوف تسخر، لكن العرس انتهى بالنسبة إلى الوقت الحاضر. اليوم، أنا منهمك بأشغال وأشغال! وفي هذه الأيام أنا مشغول إلى حد....

ـ أشغال؟ من أي نوع؟.

ـ قلي لي... ولا تنزع خيوط أريكتك!.

أثناء الكلام كنت أتسلى بسحب خيوط الأريكة التي أجلس عليها بأطراف الأصابع، كنت أسل، ومن دون وعي، ضفائر الزوايا. ولأن «هوريكي» يحرص على أشياء منزل العائلة، وحتى على خيطٍ في أريكة، فقد غضب دون أي خجل وراح يوبخني. حتى ذلك الحين، لم يكن قد غيّر من علاقته معي

جلبت والدة «هوريكي» العجوز في صينيةٍ، زبديتين من حساء الفاصولياء المحلاة الحاوية على قطع من الرز المسحوق.

ـ أوه! ماذا تجلبين؟.

كابنٍ مليء بحبِ وعطفِ الأبناء، استدار «هوريكي» نحو أمه بامتنانٍ وتواضعٍ وتحدث بلغةِ تهذيب مصطنع.

ـ أنا مرتبكٌ وخجل، أليست هذه فطيرة الفاصولياء المحلاة؟ إنها من النوع الممتاز! كان لا ينبغي أن تتعبي نفسكِ هكذا. ومع أنك مشغولة خرجتِ. لم يكن ضرورياً هذا! كلا. لا أستحق هذا الدلال. أشكرك. خذ هذه الزبدية: لقد صنعتها أمي خصيصاً. آه! ممتاز! فاخر!.

هكذا وبشكل مسرحي واضح، عبّر عن فرحه بشدة وأكل كما لو كان ذلك لذيذاً فعلاً. أما أنا فقد التهمت زبديتي: كان الحساء مثل الماء الفاتر والرز المسحوق لم يكن ما أعرفه، بل كان شيئاً آخر أجهله. لم أزدرِ قطعاً هذا الطعام الرديء (آنذاك لم أكن أفكر بانعدام النكهة. كانت عناية الأم العجوز تلامس أعماقي. وإذا كانت رداءة الطعام قد أخافتني، فإنّها لم تثر ازدرائي). من خلال هذه الحلوى ومن خلال السعادة التي عبّر عنها «هوريكي»، اكتشفتُ معنى الحياة داخل عائلة من طوكيو، واكتشفت ببساطة أكل أهل المدن. أما أنا، ذو التفكير البسيط، والذي لم يكف عن الهرب من حياة أشباهه الداخلية والخارجية، فقد كنت مشوّساً إذ وجدت نفسي مهجوراً تماماً. حتى «هوريكي» هجرني. ألاحظ الآن أنني كنت، وأنا أستخدم المهشتين[1] اللتين بدأ طلاؤهما بالتساقط، كي آكل فطيرة الفاصولياء المحلاة، مليئاً بالأفكار القلقة، المضطربة، البائسة التي لا يمكن احتمالها.

ـ أنا آسف، لكنني اليوم مشغول، أتدري...، قال لي ذلك «هوريكي» وهو يهمُّ بالخروج لابساً معطفه.

ـ إلى اللقاء، آسف، ولكن...

وفي هذه اللحظ، قدمت امرأةٌ لزيارة «هوريكي». بالنسبة إلي، كانت فرصةَ تغيير مفاجئ في حياتي.

---

(1) مِهَشَّةٌ، مِهَشَّتَانِ: نقترحُ هذه الترجمة بدلاً من الترجمة السائدة والمألوفة: «عود، عودان» أو قضيب أو عصا، للإشارة إلى «الملعقة» الآسيوية (الصين، اليابان، شرق آسيا عموماً) المكوّنة من عودين خشبيين قصيرين يشبهان قلمي رصاص.

قال لها «هوريكي» بصوت احتدّ فجأة:

ـ عفواً. كنت أنوي المرور لرؤيتكِ اليوم. لكن هذا السيد جاء على غير موعد. حسناً. لا أهمية لذلك. أرجوك...

وبحركة قوية، أخذ مني الأريكة التي كنت أجلس عليها وقلبها على الوجه الآخر وقدمها إلى الزائرة. في غرفته، «هوريكي» لم يكن عنده سوى أريكة واحدة من أجل الضيوف.

كانت المرأة طويلة ومخيفة. دفعتِ الأريكة جانباً وجلستْ بالقرب من الباب.

استمعت إلى الحديث وأنا شارد الذهن. يبدو أن المرأة كانت تعمل لدى ناشر مجلات، ويبدو أنها كانت قد طلبت من «هوريكي» وصل تسديد فاتورة دعوى، أو لا أعرف ماذا، جاءت تبحث عنه.

ـ الأمر مستعجل....

ـ الوصل جاهز. جاهز منذ زمن طويل. هاهو، تفضلي وخذيه.

وصلت برقية.

قرأها «هوريكي». وجهه الذي كان بشوشاً تكدّر فجأة:

ـ أوه! أوه! أنتَ ماذا فعلت؟.

كانت برقية من «هيرامي».

ـ على أية حال. سوف تعود على الفور! أعتقد أنه ينبغي علي أن آخذك إلى بيته، لكن الآن لا وقت عندي. خرجتَ هرباً ولا تبالي!.

ـ أين تسكن؟.

ـ أجبت: في «أوكوبو».

ـ إذاً بما أن المكان قريب من شركتي...

ولدت هذه المرأة في مقاطعة «كاي». وعمرها 28 سنة. لها ابنة صغيرة عمرها خمس سنوات. وكانت تسكن في البيوت الجديدة الرخيصة بمنطقة «كوينجي». قالت لي إنها مطلّقة منذ ثلاث سنوات.

ـ يبدو لي أنك سببتَ مشكلات وهموماً للذين ربّوك. انتبه إلى نفسك، فأنت تثير الشفقة.

في البداية عشت كإنسان يُعنى به. وبعد أن تذهب «شيزوكو» (هكذا كانت تدعى هذه الصحفية) إلى العمل في مكاتب مجلةٍ في «شينجيكو»، كنا، ابنتها الصغيرة «شيجيكو»، وأنا، نحرس الشقة بهدوء، حتى ذلك الحين، كانت «شيجيكو» وفي غياب أمها، تلعب في غرفة البوّاب مع العجوز «كينو ـ كيكو» كصديق لعب. كانت سعيدة جداً.

انقضى أسبوع وأنا لم أزل هناك بطّالاً. بالقرب من النّافذة، كانت طائرة ورق لها شكل خادم النبلاء قد علقت بالشريط الكهربائي. وكانت رياح الربيع المغبّرة قد مزّقتها، لكنها بقيت عالقة بإصرار وعناد فوق الشريط، وكلّما هبّت الرّيح هبّة انحنت إلى الأمام كما لو أنها تذعن لأوامر ما. عندما كنت أنظر إليها ترتسم على شفتي ابتسامةٌ مرّةٌ ويعلو وجهي الاحمرار. وتحوّل هذا المشهد إلى كابوس.

ـ أريد نقوداً...

كم تقريباً؟.

ـ كثيراً... يقال «لا فلوسَ، لا حبّ إذاً!» هذا صحيح. أتدرين.

ـ هذا حمق، هذا كلام انتهى عصره...

ـ أتعتقدين؟ أنتِ، أنت لا يمكن أن تفهمي. في الوضع الذي أنا فيه، لا أدري إن لم يكن من الأفضل أن أذهب...

ــ إلى أين؟ ستكون فقيراً حيثما ذهبت. ثم أين تذهب؟ أنت غامض.

ــ إذا أُعطيتُ نقوداً، فإنني أرغب بشراء الساكي والدان. أما بالنسبة إلى الرّسم، فأريد أن أعمل أفضل من «هوريكي» وآخرين.

في تلك اللحظة، ما خطر في بالي هو بروتريه ذاتي كنت قد رسمته نسخاً متعددة أيام المدرسة وكان «تاكيتشي» يسميها «بورتريهات البهلول»: تحف فنية ضائعة. لقد ضاعت أثناء تنقلاتي الكثيرة من مسكن إلى آخر، لكنني أتصور أنها كانت رائعة. منذ ذلك الحين، حاولت عبثاً رسم بورتريهات أخرى كثيرة، لكنها بقيت بعيدة جداً، وبشكل لا يقاس، عن تلك الروائع التي أتذكرها كنت أفتقر إلى اللَّهب، وكان شعور السقوط لا يفارقني.

بقيةٌ من كحول الأفسنتين في قاع الكأس..

بهذه الصورة تمثّلتُ ذلك السقوط الذي كان يستحيل الكفُّ عن الخضوع لمنحدراته. وما إن يذكر الرسم أمامي حتى كانت تبرق أمام ناظري بقية الأفسنتين تلك في أسفل الفنجان. آه! كنت أودّ إطلاع هذه المرأة على تلك الرسوم وإقناعها بموهبتي وكنت أتألم بشدة من تلهفي إلى هذا الأمر.

ـ آه! آه! ربّما، هذا ليس مستحيلاً؟ قالت ضاحكة. أنت خطير... كنت تمزح. هذا لطف منك...

ـ لم أكن أمزح، كنت أقول الحقيقة. نعم، أردت إظهار تلك الرسوم أمام الناس جميعهم. وفجأة تغيرت أفكاري وعدلت عن رأيي.

ـ كانت رسوماً كاريكاتورية! على الأقل، أريد أن أكون أقوى من «هوريكي» في الرسم الكاريكاتوري!

كلمات المهرج هذه، المهرج الخبير بخداع الآخرين، أُخِذَتْ على محمل الجد.

ـ وليكن. أنا أيضاً معجبة بك. فالرّسوم الكاريكاتورية التي ترسمها دوماً لأجل ابنتي «شيجيكو» تجعلني أنفجر بالضحك. ما رأيك أن تحاول؟ وأنا سأطلب من رئيس التحرير أن ينشرها لك في مجلتنا.

في مكاتب تلك المجلة التي لم أعد أذكر اسمها جيداً والتي كانت للأطفال، كانوا يصدرون عدداً شهرياً خاصاً.

... عندما تراك النساء، فإن غالبيتهن تكون جاهزة حالاً لفعل أي شيء من أجلك لدرجة غير محتملة... عندها أدير الأمور في اتجاه المزح، لأنني خويف دوماً.. أحيانا، عندما أكون وحيداً، يتنابني انهيار عصبي شديد، لكن هذه الحالة تهيّج قلب النساء أكثر وأكثر.

كانت «شيزوكو» تشجعني كثيراً، لكن كنت أقول لنفسي بأن حالتي تمثل حالة إنسان يُعَالْ وينفق عليه، ثم أغرق أكثر مما مضى في كآباتي السوداء. من جهة أخرى، صحتي لم تتحسن... نقودٌ من امرأة! كنت أفكر سرّاً بالابتعاد عن «شيزوكو» وتدبير أموري وحاجاتي بنفسي والعمل بيدي. لكن ما حدث هو العكس: صرت تابعاً لها أكثر فأكثر. لقد شاءت الظروف وأشياء أخرى، بعد أن تركت البيت، أن أعتمد بشكل كامل تقريباً على تلك المرأة القادمة من «كاي» والأقوى من الرجل الذي هو أنا. وكنتيجة حتمية لذلك، وجدت نفسي مذلولاً أكثر من السابق أمام «شيزوكو».

بفضلها عقد اجتماع حضره «هيرامي» و«هوريكي» وهي أيضاً. كانت علاقاتي مع العائلة في البلدة قد قطعت تماماً. وكنت أنا

و«شيزوكو» نعيش تحت سقف واحد كزوج وزوجة أمام عيون النّاس جميعاً. لم تكن «شيزوكو» تدخر جهداً كي تبيع ـ شيء ميؤوس منه ـ رسوماتي الكاريكاتورية وتشتري لي بثمنها ساكي ودخاناً. مع ذلك، كانت تزداد كآباتي ويشتد إحباطي. كنت أغرق وأتلاشى، لكن ما أوصلني إلى الدرك الأسفل، هو أن ذكريات العائلة في البلدة كانت تأتيني فجأةِ وأنا أرسم من أجل مجلة «شيزوكو» سلسلة كاريكاتورية شهرية بعنوان: «مغامرات كينتا ـ سان وأوتا ـ سان». لم يكن بإمكاني، وأنا أشعر بكلِّ بؤسي، الإمساك بالريشة، لذا أطأطئ رأسي وأبكي.

والتي ساعدتني مساعدة بسيطة آنذاك، هي الصغيرة «شيجيكو» التي كانت تناديني دونما صعوبة «بابا».

ـ أصحيح يا أبي، أننا إذا ابتهلنا إلى الله، يمنحنا كلَّ شيءٍ؟.

لكم تمنيت أن أقوم بتلك الصلاة وذاك الابتهال.

آه! امنحني أيها الرّب إرادة باردة. عرّفني بطبيعة الإنسان الحقيقية. عندما يدفع إنسانٌ إنساناً آخر كي يبعده عن طريقه، أليست خطيئة؟ امنحني أيها الرَّب قناع الغضب.

ـ وبعد... ربّما يمنح اللهُ «شيجيكو» كل ما تطلبه، أما بالنسبة إلى «بابا» فلن يكون الأمر كذلك.

كنت أخاف حتى من الله. لم أكن أعتقد أن الله يحبنا. ولم أكن مؤمناً إلاّ بعذابه وعقوباته. الإيمان. كنت أتصور أن الإيمان، ببساطة، هو ضرورة المثول أمام محكمة الله كي نحاسب فقط. كنت أعتقد بالجحيم، لكنني حاولت عبثاً فلم أعتقد بالسماء.

ـ لماذا لا يكون الأمر كذلك؟.

ـ لأنني عصيتُ والديّ.

ـ حقا!؟ ولكن الجميع يقولون بأن «بابا» رجل كما ينبغي تماماً.

ذلك لأنني كنت أخدع أشباهي. كنت أعلم أن سكان البناية جميعهم يظهرون لي الودّ، لكن لم أكن أخاف منهم! كنت محبوباً عندما أخاف. يا له من مأزق! أية معضلة! أن تكون محبوباً، وأن تخافَ وأنت محبوب! كان يجب الابتعاد عن الآخرين. هذه العادة المَرَضية، كان يصعب جداً أن أفسرها لـ «شيجيكو».

ـ «شيجيكو»، هل تعلمين، أن «شيجيكو» تريد أباً حقيقياً.

تلقيتُ صدمة سببت لي الدوخة. أعداء! هل كنت عدو «شيجيكو»؟ وهل كانت هي عدوي؟ مهما يكن، هنا أيضاً كان يوجد راشدٌ فظيع يهددني، شخص غريب، غامض، شخص متدثر بالغرابة والأسرار. في مثل هذا الجوّ بدا لي فجأة وجه «شيجيكو».

كنت أفكِّر بـ «شيجيكو» فقط، لكن كان يوجد وراءها رجل، وهذا الرجل يشبه «ذيل الثور الذي يقتل النُّعرة فجأة». ومن تلك اللحظة، كان لا بدَّ أن أرتجف أمام «شيجيكو» نفسها.

ـ هل هنا دون جوان؟.

إنّه «هوريكي» الذي جاء لرؤيتي. فمكان الرجل الذي هجرني في الكآبة والضيق يوم هربتُ من البيت، كان هناك «هوريكي» الذي يتبسم بشكل غامض والذي جاء إليَّ دون أن أكون قادراً على الاعتراض.

ـ على ما يبدو أصبحت رسوماتك الكاريكاتورية شعبية ورائجة جداً. أعمال هاوٍ، لك تحتوي على جرأة لا شيء يوقفها. ولا بدَّ من الانحناء أمامها. مع ذلك انتبه! الرسم لا يزال ضعيفاً!.

كان يأخذ دور وموقف الأستاذ. لو أطلعتُ هذا الحيوان على رسومات «البهلول»، ماذا كان سيقول وكيف سيبدو؟. فكرت هكذا وقلبي يتألم.

ـ لا تقل هذا! سأصرخ من الكآبة والألم! قلت ذلك وأنا أسمع إلى «هوريكي» المتحمس أكثر، يعلن:

ـ من الذين لديهم موهبة عالمية جميعهم، لن يبقى في يوم من الأيام سوى عدد ضئيل. موهبة عالمية.. كان يستحيل أن يخطر لي شيء آخر غير ابتسامة مرّة. مع ذلك، هؤلاء الذين يخافون، مثلي، من أشباههم، ويحترسون منهم، ويخدعونهم، يختلفون عن الذين يتبعون آداب السلوك، الأذكياء والخبثاء، والذين يوجزهم المثل القائل: «ابتعد ولن يحدث لك شيء». لا يمكن لإنسانين أن يتفاهما فيما بينهما. حتى وإن كانا يخطئان في الحكم على بعضهما تماماً ويخدعان بعضهما البعض تماماً، فإنهما يعيشان حياتهما دون أن يعلقا أية أهمية على ذلك، بغية أن يصبحا صديقين حميمين، وعندما يموت أحدهما، يبكيه الآخر بكاءً حاراً.

«هوريكي» الذي شهد الظروف التالية لخروجي من البيت، ألم يكن الصانع الأول لعودتي إلى الحياة؟ كان يتصرف هكذا، يتظاهر بالحكمة ويقدم لي المواعظ. ثم كان يزورني في عزّ اللّيل وهو سكران، ينام عندي أو يذهب بعد أن يقترض مني خمس ينات. (خمس ينات: هذه هي تعرفته!).

ـ الآن، توقفتَ عن ملاحقة النساء. وذلك لأن النّاس لن يسمحوا لك بذلك بعد.

النّاس، ما هذا في الواقع؟ من هم؟ هل هم مجموع الأفراد؟ أين يوجد «العالم» الذي/ الذين نتحدث عنه/ عنهم؟ على الرّغم من أنني عشت حتى ذلك الحين وأنا مقتنع بأن «هوريكي» رجل قوي، عنيد، رهيب، لكن عندما سمعته يتحدث بهذا الشكل رغبت أن أقول له:

ـ لكن العالم، النّاس، أليسو أنت؟.

كانت هذه الكلمات على طرف لساني، وكدت أقولها، لكنني تمالكتُ نفسي كي لا أغضب «هوريكي».

ـ هذا، لا يسمح به النّاس، العالم.

ـ ليس العالم والنّاس. ألستَ أنتَ الذي لا تسمح به؟.

ـ عندما نفعل شيئاً مماثلاً، فإن العالم يلقننا درساً فظيعاً.

ـ ليس من العالم نتلقى هذا الدرس، بل منك.

ـ لن يتوانى العالم عن دفنك.

ـ ليس العالم، بل أنت الذي تريد دفني.

كنت أجترُّ هذه الكلمات وأشياء أخرى غيرها في أعماقي، لكن اكتفيت بتجفيف العرق الذي غمر وجهي بمنديلي، واقتصرت على القول مبتسماً:

ـ عرق بارد... إنه عرق بارد...

منذ ذلك الوقت، لم تفارقني هذه الفكرة: «العالم/ النّاس، أليسوا فرداً؟».

آنذاك، وعندما بدأت أقتنع بهذه الفكرة، صرت أقدر من الماضي على التصرف بحرية وكما أريد. فـ «شيزوكو» ترى أنني أصبحت نزوياً متحرراً إلى حد ما، وترى أن خجلي قد تلاشى. أما «هوريكي» فيرى أنني صرت مسكيناً بشكل مدهش. أما على حد قول الصغيرة «شيجيكو»، فلم أعد ألاطفها أو أداعبها أبداً.

بصمت، ودون ابتسام، ويوماً بعد يوم، مع اهتمامي برعاية «شيجيكو» كنت أعمل على رسوم كاريكاتورية قصصية: مثل «مغامرات كينتا ـ سان وأوتا ـ سان» أو مثل «الراهب البوذي الهادئ

الأعصاب»، وهي قصة استوحيتها من «باب دون مشكلات» أو من «الصغير المتلهف»ن عناوين أضعها في حالة من اليأس. كانت رسوماً كاريكاتورية أقوم برسمها تلبيةً لطلبات ناشرين متعددين (شيئاً فشيئاً، كانت تأتيني طلبات من شركات أخرى غير شركة «شيزوكو»، لكن شركات أدنى مستوى من شركتها؛ إنهم ناشرون من الدرجة الثالثة). كنت في حالة نفسية كئيبة جداً. كنت أرسم كي أشرب فقط. فحالما كانت تعود «شيزوكو» من عملها وتحل محلي في رعاية الطفلة، أخرج فوراً وأذهب إلى جوار محطة «كوئنجي»، حيث أشرب نوعاً رخيصاً وقوياً من الساكي على بسطة بياع متجول أو داخل خمارة، ثم أعود إلى البيت مبتهج الفؤاد قليلاً.

ـ كلّما أنظر إليكِ، أجد لديك شيئاً غريباً. يبدو أن وجه الرّاهب البوذي الهادئ الأعصاب الذي أرسمه قد استعار شيئاً من وجهك الجامد.

ـ فيما يخص الوجه الجامد، يبدو وجهكَ عجوزاً جداً، وتبدو في الأربعين.

ـ هذا خطأكِ! لقد استخدمتِني حتى النخاع.

ـ لا تمثّل واذهب إلى النّوم. هل تريد أن تأكل؟.

هادئاً، لا أقاومها.

ـ أشربُ إذا كان لديكِ ساكي.

«المياه تجري، وحياة الإنسان تنقضي. عيشوا بلا هموم، فأشجار الصفصاف على طرف النهر..».

مدندناً بهذه الأغنية، أترك «شيزوكو» تخلع لي ثيابي. ثم أنام ووجهي غارق في صدرها كالعادة.

الغد يعيد الأمس

واليوم لا بدَّ أن أفعل ما فعلته البارحة

وإذا احترست من سعادة جامحة

فلن أشعر حينها بحزن عميق حول حجر يسدُّ الطريق

يدور ضفدع ثم يسير

عندما اكتشفت هذه الأبيات (وهي لـ «غي ـ شارل ـ كروا» ترجمة أويدا ـ بين) أحمّر وجهي كما لو أن ناراً علته.

ضفدع. علجوم.

(هذا الضفدع، هذا العلجوم وهو أنا. لا يهم أن يسمح العالم أو لا يسمح. أن يدفنك النّاس أو لا يدفنوك. أنا حيوان أدنى من كلب أو قط. ضفدع. علجوم. لا أقدر على الحركة إلا ببطء).

كانت كمية الساكي التي أتناولها تتزايد بالتدريج. لم أعد أشرب بالقرب من محطة «كوئنجي» فقط، بل صرت أذهب حتى «شينجيكو» وحتى «كينزا» كي أشرب. كان يحدث لي أن أنام خارج البيت. لكن ما لم يكن من عادتي، هو أنني صرت أتظاهر في الخمارة بالسوقية وأوزع القبلات ذات اليمين وذات الشّمال. وفي النهار أصبحت سكيراً عربيداً كما كنت قبل محاولة انتحاري، أو بالأحرى أكثر مما كنت قبل هذا الحادث.

ولما كنت خالي الوفاض تماماً، انتهى الأمر إلى أن آخذ ثياب «شيزوكو» كي أبيعها.

انقضى عامٌ. وبعد أن ابتسمتُ ابتسامةً مرّة لعبد الحب الذي هوى إلى الدرك الأسفل، في العهد الذي أضاعت فيه أشجار الكرز

أزهارها، أخذتُ خفيةً بعض أحزمة وقمصان «شيزوكو» ورهنتها لـدى أحد مكاتب الدّين والاقتراض. وبالنقود التي حـصلت عليهـا هكـذا، ذهبت للشراب في «كينزا». نمت ليلـتين متتـاليتين خـارج البيـت. وفي الليلة الثالثة، شعرت أن الأمـور لا يمكـن أن تـستمر. فعـدتُ. عـدتُ بشكل لا شعوري. وعندما وصـلت إلى بـاب غرفـة «شـيزوكو» خانقـاً صوت خطواتي، سمعت في الداخل حواراً بين الأم وصغيرتها.

ـ لماذا يشرب الساكي؟.

ـ أتعلمين. ليس لأنَّ بابا يحب الساكي يشرب: إنه رجل جيد جداً، إذاً..

ـ جميع الرجال الجيدين جداً يشربون الساكي؟.

ـ ليس بالضرورة، لكن...

ـ من المؤكد أن بابا سوف يُفَاجَأ!.

ـ قد لا يحبه!.

ـ أوه! أوه! خرج من القفص!.

ـ إنه يشبه «الصغير المتلهف»، أليس كذلك؟.

ـ نعم، أليس كذلك؟.

سمعت «شيزوكو» تنطلق صادقة بـضحكةٍ سـعيدة. شـققتُ البـاب قليلاً ونظرت: إنه أرنب أبيض. طَـقْ! طَـقْ! كـان يقفـز داخـل الغرفـة وتلاحقه الأم وطفلتها.

(كائنان سعيدان إجمالاً. أما أنا، فإذا وضعت نفـسي بينـهما، فلـن أجلب لهما سوى الفوضـى والاضـطراب: سـعادة وضـيعة. طيبتـان، كريمتان، هذه الأم وهذه الطفلة. قلت: لـو يتكـرّم الله ويـسمع صـلاة كائن مثلي، فلسوف أرجوه أن يمنحهما السعادة الأبدية).

كانت عندي رغبة أن أجلس القرفصاء وآخذ بالتصفيق. لكنني أغلقت الباب بهدوء وذهبت إلى «كنيزا» ولم أعد إلى ذلك البيت أبداً.

حينذاك، أخذت أعيش، في الطابق الأول لخمارة قريبة من «كيوباشي»، حياة إنسان بطّال تعيله امرأة.

العالم! شعرت أنني بدأت، وإلى حد ما، أفهمه بغموض وعموم، شعرت أنني أخذت أفهم النّاس قليلاً. على الفرد، في صراعه ضد أشباهه، أن ينتصر. الإنسان لا يخضع للإنسان، الرجل لا يخضع للرجل. فالعبد، حتى العبد يرد الضربات بطريقته، وكما يستطيع بصفته عبداً. عندما يقال هناك واجبات أخلاقية بين النّاس، بين العالم، فإن مَنْ يُراد بلوغه والوصول إليه هو الفرد، ودوماً الفرد. إن صعوبة فهم العالم، هي صعوبة فهم الأفراد. بعد خوفي من الأشباح المخلوقة التي لا تحصى، وهي أشباح لم يخلقها العالم، بل الأفراد، لم أعدْ كما كنت سابقاً فريسةَ القلق حيث كان كلُ شيء يخترقني ويؤثر فيّ.

وبما أنني تركت بيت «كوئنجي»، قلت لصاحبة بار «كيوباشي»:

ـ لقد طلَّقت.

لم أقل أكثر، لكن أردت بذلك وضع حد نهائي للصراع. واعتباراً من ذلك المساء، رحت أعيش في غرفة عيشةً مليئة بالفوضى. مع ذلك، فإن «العالم» الذي تخيلت أنه كان متوحشاً معي، لم يسبب لي أي بؤس؛ ولم أقدِّم له أي تفسير. كلُ شيء كان يسير نحو الأفضل، طالما أن صاحبة البار موافقة.

اعتُبرتُ من رواد المكان. كنت في نظر البعض الباترون، وفي نظر آخرين كنت ولداً لشراء الحاجيات. لم يكن باستطاعة أحد أن يحدد وضعي بدقة، لكن لا أحد يُدهش. كان رواد البار ينادونني: يو ـ تشان! يو ـ تشان! ويتعاملون معي بلطف تام ويقدمون لي الشراب.

وشيئاً فشيئاً، لم أعد أولي العالم اهتماماً، وأخذت بالتفكير أنه ليس محيطاً رهيباً كما اعتقدت سابقاً. لكن ما كان يخيفني حتى ذلك الحين هو الآلاف من جراثيم الشّهاق التي تقذف بها رياح الربيع، والآلاف من الجراثيم التي تسبب فقدان النظر في الحمامات الشعبية، والآلاف من جراثيم تساقط الشعر عند الحلاق؛ وتلال الحشرات الجلدية المؤذية القاطنة داخل أحزمة التعليق في الترامويات؛ ويرقانات الدودة الوحيدة، وبيوض ديدان الديستوم الكبدية، وأشياء أخرى لا أعرفها تختفي في السمك النيئ أو في لحم البقر النيئ أو في لحم الخنزير النيئ، أو شظية صغيرة من الزجاج تدخل في أخمص القدم الحافية وتسير في الجسم ثم تلتقي العين فتسبب فقدان النظر؛ كلٌ ما يمكن أن نسميه «خرافات ابتكرها العالم» كان يخيفني. من المعروف علمياً ـ وهذا مؤكد ـ أن آلافاً مؤلفة من الجراثيم تحوم وتعجُّ حولنا. وفي الوقت نفسه، كنت أعلم أنا إذا لم نعر أي اهتمام لوجودها، فإن هذه «الخرافات» لن تكون أكثر من أشياء خيالية وأكثر من «أشباح يحركها العلم». ثلاث حبات من الرز تترك في طبق الطعام البارد: إذا ترك ملايين النّاس ثلاث حباتٍ كلّ يوم، فكم كيساً من الرز يكون قد هُدر هكذا؟ أو إذا ادّخر النّاس منديلاً ورقياً كلّ يوم، فكم علبةً تكون قد ربحت؟ كنت أشعر بالفزع عندما أترك حبة رز واحة أو عندما أتمخط بمنديل. وكنت أتألم لرؤيتي ـ في الخيال ـجبلاً من الرز وجبلاً من العلب الورقية مهدورين. كان يعتريني شعور مبهم بأنني اقترفت غلطة كبيرة. لم أكن أجمع حبات رزّي الثلاث، لكن بسبب «أكاذيب العلم هذه»، و«أكاذيب الإحصاء هذه»، و«أكاذيب الرياضيات هذه» كنتُ أجري عمليات الضرب والتقسيم طارحاً على نفسي مسائل سخيفة مثل: ما هي إمكانية أن يسقط رجلٌ داخل إلى مرحاض بلا كهرباء

وغاصت قدمه في النُّقْرة؟ أو: من بين المسافرين الذين يتدافعون للصعود داخل الترامويّ، كم واحداً يضع قدمه بين الباب وحافة الرصيف؟ ومع أن هذه الأشياء قد تحدث، لكنني لم أسمع أبداً بحادث وقع لشخص يفشخ فوق نقرة المرحاض. أشفقت على نفسي لدرجة أنني ضحكت من ذلك، أشفقت عليها لاعتقادي بأنني زرعت في الرأس أن فرضيات مماثلة هي حقائق علمية قبلتها مغمض العينين وآمنت بها كأحداث واقعية أثارت فيّ الخوف والرّعب لحد يوم أمس. وشيئاً فشيئاً تعلمت فهم ما هو العالم.

أقول هذا والعالم كان لا يزال يثير رعبي وخوفي. ولكي أبقى مرتاحاً مع الزبائن، كان يجب أن أشرب الساكي ملء الأقداح، لذا كان لي وجه مخيف. في كلٍ مساء أخرج من البار. ومثلَ طفل يقبض بقوة على حيوانات صغيرة خائفة وهي في متناوله، كنت أتوجه إلى زبائن البار لأثيرهم من أجل الحديث حول الفن. لكن أية أحاديث تلك! إنها أحاديث سكران تعيسة.

رسّام كاريكاتور! آه! رسام كاريكاتور مجهول، من دون مرح كبير ومن دون حزن كبير. على أية حال، سيكون هناك الوقتُ كلّ الوقت من أجل الاستسلام للأحزان الكبرى فيما بعد. كنت أرغب بفرح برّي متوحش، لكن فرحي كان حينها أن أتبادل أحاديث اللغو مع الزبائن كي أشرب ما يقدمونه لي من الساكي.

كنت أعيش هذه الحياة العبثية منذ أكثر من عام على وصولي إلى «كيوباشي». لم أكن أرسم من أجل مجلاّت للأطفال فقط، بل كنت أقدّم رسوماً كاريكاتورية لمجلات فاحشة تباع في المحطات، كما كنت أرسم أيضاً عراة فاحشين وأوقع باسم مستعار: «جوشي ـ إكيتا»

(يمكن لحروفه أن تعني: «المنتحر حباً») وهذه الرسوم كانت إطاراً لهذه الرباعيات[1]:

توقف عن هذه الصلوات اللا طائل منها،

وسوف تقذف عيناً من الدموع

هيا! إلى الكأس! وتذكّر ما تحبُّ فقط

ثم انسَ الهموم التافهة

***

الذين يُغرقون الآخرين بالحيرة والفزع

يخافون الجرائم التي ارتكبوها بحق أنفسهم

وإذا لم تحترس من انتقام الموت

فلن تكفّ عن اجترار حساباتك

***

أمسِ مساءً، أترعتُ كأسي وفاض قلبي بالسرور

وهذا الصباح أفقت حزيناً

يا للغرابة أن يتغير مزاجي هكذا

في ليلة واحدة

***

(1) يشير دازاي في الهامش إلى أنه أخذ هذه الرباعيات من ترجمة موجودة باللغة اليابانية. وقد يُظن أنها لعمر الخيام. لكن الأمر ليس كذلك، فهي رباعيات مكتوبة على طريقة الخيام.

لا تفكر باللعنات

مثلَ طبل يُدوّي صداه في البعيد

سوف لن تخفف آلامك

إذا أحصيت خطاياك كما تحصي الفم

***

هل العدالة بوصلة تقود البشر؟

إذاً، في أراضٍ خضّبتها دماء

سفكتها خناجر القتلة

أين تقيم العدالة؟

***

أين الهداية؟

أين الحكمة؟

يمكن للعالم أن يكون جميلاً، لكنه قد يخيف

يحمل الضعفاء أعباءً تفوق ما يستطيعون

***

فريسة للرغبات الجامحة المزروعة في قلوبهم،

وملعونون باسم الخير وباسم الشرّ

باسم الجريمة والعقاب،

لا يعرف النّاس ماذا يفعلون. هاهم حيارى

إذ لا قوة لديهم ولا إرادة للصراع

***

إلى أين نصل؟

ماذا؟ النقد؟ الفحص؟ استدراك المعارف؟

أحلام فارغة ومحض أوهام

ـ نسيت أن تشرب ـ كلُّ هذا، أفكار مجنون

***

انظر إلى تلك السماء اللا متناهية،

إلى النقاط الصغيرة المتناثرة فيها.

أتفهم كيف تدور الأرض؟

آهٍ! فلتدرْ، فلتنتقل إلى هنا أو هناك... لا أبالي

***

في كلِّ مكان أشعر بوجود قوة عليا

في البلدان جميعاً وعند الشعوب جميعاً

أكتشف الطبيعة البشرية نفسها؛

ألا يقال بأنني وثني الهوى؟

***

مع ذلك، فالآخرون يفسرون

الكتب المقدسة بطريقة خاطئة.

يعتقدون أن لا معنى ولا حكمة خارجهم،

يمنعون الخمر وملذات الزنا!

آخٍ! آهٍ، يا مصطفى كم لا أطيقهم!

***

مع ذلك، كانت توجد في تلك الفترة فتاةٌ عذراء تلحّ عليّ كي أتوقف عن الشراب.

ـ هذا سيء جداً! فأنت تسكر بدءاً من ظهر كلٍ يوم.

كن عمرها بين السابعة عشرة والثامنة عشرة، بياعةٌ في دكان تبغ صغير مقابل البار وتدعى «يوشي ـ تشان»، لها بشرة بيضاء وسنٌ بارزة، وفي كل مرّة اذهب لشراء تبغي من عندها، تؤنبني مبتسمة.

ـ لماذا لا أشرب؟ ولِمَ هذا سيء؟ لو شرب النّاس جميع ما عندهم من الساكي، لمحوا الكراهية والحقد من على الأرض. يقال إنه في بلاد الفرس القديمة ولكي يعود الأملِ إلى قلبٍ معذّب، مكروب، كانوا يشربون قدحاً صغيراً يسبب سكراً خفيفاً. هلَ فهمتِ؟.

ـ لا أفهم!.

ـ أيّ حبً قد يُقَّبل أيضاً!.

ـ هيا إذاً!.

ودون أي خجل قدّمت شفتها السفلى.

ـ آه يا بلهاء! ليس لديك أي حس بالحشمة!.

مع ذلك، كانت تصرفات «يوشي ـ تشان» تشير بوضوح إلى أنها عذراء، إلى أن أحداً لم يقترب منها بعد.

في نهاية السنة تقريباً، وذات مساء شديد البرد كنت سكران وأتيت لشراء الدخان كالعادة، فسقطت في حفرة أمام الدكان. صرخت «يوتشي ـ تشان! ساعديني!»، فجاءت وسحبتني من هناك، ثم ضمدت لي ذراعي اليمنى وقالت بنبرة جدية دون ابتسامة:

ـ تشرب كثيراً جداً.

لم أكن أبالي بالموت. لكن أن أُجرح وأنزف، أن أصبح ذا عاهة،

فذلك يثير هلعي، وبينما كانت «يوشي ـ تشان» تضمد جرحي في الذراع اليمنى، قلت لنفسي بأن الحظ قد حالفني.

ـ لن أشرب قط! منذ غدٍ! ولا نقطة بعد!.

ـ صحيح؟

ـ هذا أكيد. لن أشرب بعد. وإذا توقفت عن الشراب، فهل تريدين أن تتزوجي بي يا «يوشي ـ تشان»؟ ألقيتُ هذا في الهواء مازحاً.

ـ طَبْ..

«طَبْ» هي اختزال لكلمة «طبعاً». في ذلك العهد كان شائعاً جداً استخدام ضروب متنوعة من الاختزالات.

ـ أقطع رأسي إذا عدت للشراب من جديد. لن أشرب بعد.

في اليوم الثاني أخذت بالشراب والسكر من جديد ومنذ الظهيرة.

وحوالي المساء، خرجتُ مترنحاً في الشارع فوجدت نفسي قدّام دكان «يوشي ـ تشان».

ـ اعذريني يا «يوشي ـ تشان» لقد شربت من جديد.

ـ أوه! ما أكره هذا! لا أحب أن تتظاهر بالسكر.

قفزت، وشعرت أنني صحوت من سكري.

ـ للأسف. هذا صحيح. حقاً شربت وسكرت ولا أتظاهر بالسكر.

ـ لا تمزح. النّاس سيئون.

لم أرتَبْ بذلك ولم أشك لحظة واحدة.

ـ ليس صعباً أن تلمح سكري. اليوم أيضاً ومنذ الظهر وأنا أشرب. اعذريني، اعذريني.

ـ تلعب جيداً دور الكوميدي!.

ـ ليست كوميديا. «هذا الحيوان! قد نقبِّله!».

ـ هيا! تفضل.

ـ كلاّ. لا حقّ لي بذلك. ثم يجب أن أسلِّم بعدم الزواج منك. انظري إلى وجهي... لا بدّ أنه احمرّ بسبب الشراب.

ـ الشمس الغاربة هي التي بلغت وجهك. لذا لا ينبغي الازدهاء بالنصر. أمس قطعت وعداً. وكان عليك ألاّ تشرب. قلت: «رأسي للقطع إذاً...» وتقول الآن بأنك شربت: كذب، كذب بكذب!».

بوجه شاحب ومبتسم تجلس «يوشي ـ تشان» في دكانها الموحش... آه!.

أكنُّ احتراماً شديداً لهذه العذرية الطاهرة النقية من كل قذارة. حتى ذلك الحين/ لم أكن أبداً قد نمت مع عذراء أصغر مني «سوف أتزوجها، ولتكن النتائج ما تكون فيما بعد! على الإنسان أن يفرح في حياته فرحاً بريّاً متوحشاً ولو مرة واحدة. فجمال الحالة العذرية ليست إلاّ وهماً من أوهام الشعراء ممزوجاً بعاطفية عذبة». فكرت بكل هذا، لكن ذلك الجمال كان هنا موجوداً ينبض بالحياة. عندما نتزوج في الربيع القادم سوف نذهب بالدراجة لرؤية الأوراق الجديدة قرب الشلالات. اتخذت قراراً ميدانياً وفورياً. هكذا لم يعد لديّ أدنى شك بأنني سأسرق هذه الوردة.

تزوجنا. الأفراح التي شعرت بها لم تكن كبيرة جداً بالتأكيد. فأمام الآلام التي جاءت فيما بعد، تبدو كلمة «فظيعة» دون مستوى الحقيقة والواقع. لقد تجاوزت كلَّ ما يمكن تصوره. العالم، بالنسبة إليَّ، لا يمكن سبره، إنه مكان مريع. وعندما اتخذت ذلك القرار، لم أبسِّط شيئاً على الإطلاق.

«هوريكي» وأنا.

إذا كانت كلمة زمالة تعني أن يتعاشر اثنان وكلاهما يحتقر الآخر، وأن ينسجا حول نفسيهما أشياء تافهة، فإن علاقتي بـ «هوريكي» يمكن أن توصف بالزمالة.

لجأتُ إلى صاحبة البار في «كيوباشي» واستعنت بكرمها (قد يبدو غريباً الكلام على «الكرم» النسوي، لكن تجربتي هي الآتية: في المدينة النساء أكرم من الرجال بكثير. فالرجال عموماً خجولون ويتظاهرون بالكرم، لكن سرعان ما يتجلى بخلهم). ثم باليد اليسرى تزوجت مع «يوشيكو»، بياعة الدخان. وفي مساكن قيد البناء قرب منطقة «سوميدا» استأجرت غرفة في الطابق الأرضي لمنزلٍ خشبي مكوّن من طابق واحد. وسكنا فيها نحن الاثنين. كنت قد توقفت عن الشراب، واستأنفت بهدوء ومثابرة رسومي الكاريكاتورية. مساءً وبعد العشاء نذهب إلى السينما، وفي طريق العودة ندخل إلى صالون الشاي أو نشتري غرسة مزهرة. كنت أصغي إلى أحاديث هذه الزوجة الشابة التي وضعت كامل ثقتها بي ومن كل قلبها، وكنت أتمتع بمراقبة حركاتها. ألا يمكن، بالمصادفة، أن أصبح بالتدريج مثل الرجال الآخرين، رجلاً لا تستولي عليه فكرة موت بائس؟ في ذلك الوقت، وبينما كان قلبي قد بدأ يشعر بحرارة هذه الفكرة الوديعة، ظهر «هوريكي» في حياتي من جديد.

- هذا الـ «يو»! هذا الدون جوان! بهذا ومعه تبدو عليك ملامح رجل متعقل وحكيم! لقد أرسلتْ سيدة «كوئنجي» اليوم شخصاً، وأنت تعلم...

فجأة أخفض صوته وأشار بذقنه إلى «يوشيكو» التي كانت تحضرُ الشاي في المطبخ، ثم سألني:

ـ هل هناك خطر؟.

ـ أجبت بهدوء: لا أبالي وتستطيع أن تقول كل ما تريد.

في الواقع، كانت الثقة بكاملها تتجسد في «يوشيكو». فأنا قد حكيت لها عن علاقاتي جميعها مع صاحبة البار بـ«كيوباشي». وحول مغامراتي في «كاما ـ كورا»، لم تشك بعلاقاتي مع «تسونيكو». لم أكن بحاجة إلى مهارتي في الكذب، كان يكفي بعض المسوغات والتفسيرات الصادقة. كانت «يوشيكو» تبدو لي أنها تكشف كل هذا وتصغي إليه كأنه تفاهات بلا أهمية.

ـ وصلت إليَّ الرسالة الآتية: «ألا يزال حرداناً. ولكن لماذا؟ لم يحدث شيء غير عادي، أليس كذلك؟ فليأتِ لرؤيتي من حين إلى آخر إذا كان يمرّ بـ «كوئنجي».

عندما بدأت بالنسيان، جاء طيرُ الشؤم يصفق بجناحيه حولي وينقر داخل جرح الذكريات. وفجأة عادت إليَّ ذاكرة أخطائي وانتصب خزي الماضي أمام ناظري. استولى عليَّ رعب كان يدفعني إلى الصراخ، فلم أستطع البقاء في المكان نفسه.

ـ قلت له: أتذهب للشراب؟.

ـ أجابك فلنذهب.

«هوريكي» وأنا كنّا متشابهين. كان لنا الذوق نفسه تماماً. طبعاَن ليس هذا صحيحاً إلاّ حين نكون قد تجولنا ذات اليمين وذات الشمال لنشرب أرخص وأردأ أنواع الساكي. مهما يكن، عندما نُرى معاً، نحن الاثنين، يمكن أن نؤخذ على أننا كلبين لهما الحجم نفسه والوبر نفسه، يلهثان هنا وهناك في جو مثلج.

بدءاً من ذلك اليوم، صرنا نذهب معاً إلى بار «كيوباشي». وأخيراً، ذهبنا إلى عند «شيزوكو» حيث تسكن في «كوئنجي» مثلَ كلبين سكرانين ميتين. نمت خارج البيت، ثم انتهيت بالعودة إلى المنزل.

لا أنساها: كانت ليلة حارة جداً ورطبة. ـ عندما حلَّ المساء وهبط الظلام، جاء «هوريكي» لرؤيتي حيث أسكن في «تسوجيكي» وهو يرتدي لباساً خفيفاً مجعداً وبالياً. قال لي: «اليوم أحتاج إلى النقود بأي شكل. لقد رهنت ثيابي الصيفية، وقد يكلفني الاعتراف بالأمر إلى أمي العجوز كثيراً. حقاً أنا منزعج وفي ضيق. وأريد فكّها حالاً. أقرضني نقوداً». ولسوء الحظ، لم يكن في البيت أي نقود. فقلت لـ «يوشيكو» كالعادة، أن تذهب وترهن بعض ثيابها لدى أحد مكاتب الدّين والاقتراض. ومن النقود التي حصلنا عليها هكذا، أقرضت «هوريكي» ما طلبه، وبالقليل المتبقي سألت «يوشيكو» أن تشتري كحولاً. ثم صعدنا إلى سطح البيت وتمتعنا بترطيب جسدينا في هواء عفنٍ كان يرسله إلينا نهر «سوميدا» على شكل نفحات ضعيفة متقطعة، هواءٍ لوثته المجارير القذرة.

في ذلك العهد، بدأنا نلعب بحزورات الأسماء المأساوية والهزلية. في اللعبة التي ابتدعتها، الأسماء جميعها، تُصنَّف: أسماء مذكرة، أسماء مؤنثة، أسماء حيادية. لكن في الوقت نفسه. لا بدَّ من القدرة على فصل الأسماء المأساوية عن الأسماء الهزلية. مثلاً: قارب بخاري وقطار اسمان مأساويان؛ سكة الحديد الكهربائية في المدينة والباص اسمان هزليان. لماذا هكذا؟ لا ينبغي النظر إلى الأمور بمنظار فني. فالمؤلف الذي يُدْخِلُ في الهزلي عنصراً مأساوياً واحداً يخسر من فعله هذا، والشيء نفسه ينطبق على المأساوي.

قلت لـ «هوريكي».

ـ هل أنت جاهزة؟ «تبغ»؟.

ـ فأجاب «هوريكي» حالاً: مأساوي!.

ـ «دواء».

ـ مسحوق أو أقراص؟.

ـ حقنات.

ـ مأساوي.

ـ أتعتقد؟ هل يأخذ النّاس كثيراً من الحقن الهرمونية؟

ـ كلا. إنه مأساوي جداً. الإبرة أولاً. وأنتَ ألستَ مثالاً مأساوياً واضحاً!.

ـ يكفي. لقد خسرت. ومع ذلك، «دواء»، «طبيب» اسمان هزليان. و«الموت»؟

ـ هزلي! في نظر القس البروتستانتي كما في نظر الراهب البوذي.

ـ هذا مدهش! «الحياة» اسم مأساوي. أليس كذلك؟

ـ خطأ! اسم هزلي أيضاً.

ـ كلا، أو لعلّ كلَّ شيء هزلي أيضاً ومع ذلك، سأسألك عن اسم آخر: «رسّام كاريكاتور»؟ لن تقول لي بأن ذلك هزلي!.

ـ مأساوي! مأساوي! مأساوي جداً.

ـ ماذا؟ المأساوي جداً هو أنت!.

مثل هذه الأحاديث الشبيهة بهذيان السكارى لم تكن ممتعة قطعاً. مع ذلك، لم نفخر برؤية هذه اللعبة ـ التي لم تكن موجودة في الصالونات بعد ـ تصير ذات شهرة كبرى.

وفي ذلك العهد أيضاً، ابتدعت لعبة أخرى مشابهة: إنها لعبة الأضداد. فعكس «أسود» هو «أبيض»، لكن عكس «أبيض» هو «أحمر»، وعكس «أحمر» هو «أسود».

ـ سألتُ هوريكي: ما عكس «وردة»؟.

تغضّن فم «هوريكي» وراح يفكر.

ـ انتظر... هناك مطعم يُدعى «ورودٌ وقمر». إذاً: «قمر»!،

ـ كلاّ. ليس هذا هو العكس المطلوب. إنه بالأحرى مرادف وليس نقيضاً.

وإذا أخذنا «نجمة» و«بنفسجة» أليسا مترادفين: لا أقدام لهما.

ـ فهمت. إذاً «نحلة».

ـ نحلة؟.

ـ فوق عشب الفوانيا.. نملة؟.

ـ ماذا! إنّها مواضيع فنية. لا ينبغي الغش.

ـ وصلتُ! فوق الورود غيوم كثيفة...

ـ فوق الورود، الريح... إنّها الرّيح! نعم، عكس «وردة»، «ريح».

ـ ليس جيداً جداً. أليست هذه أبيات من «النانيوابوشي»[1]؟ لا حاجة إلى البحث عن المصدر.

ـ كلا، يُغنَّى هذا على آلة «البيوا»[2].

(1) أغنية مأساوية تغنى على الآلة الموسيقية اليابانية المعروفة ـ «شاميسن».

(2) عود ياباني من أربعة أوتار.

ـ هذا أقل جودة أيضاً. إن عكس «وردة»، انتظر... يعني كما لو أنه لا يوجد شيء مشترك بين العالم والورود، إذاً أقترح «عالم».

ـ إذاً ... انتظر قليلاً... ماذا؟ أليس «امرأة»؟

ـ بالمناسبة، ما مرادف «امرأة»؟

ـ «أحشاء».

ـ حقاً، لا تعرف الشعر يا عزيزي. إذاً ما عكس «أحشاء»؟.

ـ حليب.

ـ آه. هذا جميل. قليلاً حول هذا الموضوع. ما عكس «خزي»؟

ـ «سَفَهٌ»، «رسام كاريكاتور عالموضة»، «المنتحر الحي».

ـ هوريكي ـ ماساو!.

وهنا توقفنا عن الضحك. فالسُكرُ الخاص للمشروب الكحولي ترك لديّ شعوراً أليماً بأن رأسي قد امتلأ بشظايا الزجاج.

ـ لا تتباه. فأنا لست مثلك ولا أشعر بالخزي من توقيفي.

صُـدِمْتُ. لأن «هوريكي» لم يكن في الحقيقة يعاملني ككائن طبيعي. كنت في نظره كائناً يرفض الموت، ولا يعرف الخجل، وشبحاً مجنوناً، أو إذا جاز القول «جثة حية» يستحيل فهمها تُستَخدم قدر الإمكان في أوقات اللّهو. لم تكن «صداقته» لتذهب أبعد من ذلك. هكذا اعتقدت. وكنت أشعر بالضيق والانزعاج. مع ذلك، تراجعت عن هذا الرأي الذي كوّنته عن «هوريكي»، عندما رأيت أنه يستطيع أن يعمِّم عليَّ بالطريقة نفسها، ولأنني، والحق يقال، لم أثبت منذ الطفولة امتلاكي خصلة واحدة من الخصال التي يُطَالَبُ بها الرجل عادة. والحالة هذه، يمكن تبرير ازدراء «هوريكي» لي.

قلت متظاهراً باللامبالاة:

ـ ما عكس «جريمة»؟.

ـ أجاب «هوريكي» بهدوء مبتسماً: «عدالة».

نظرت إليه من جديد. وتحت الضوء الأحمر المترجرج، ضوء النيون الذي يشعُّ من أجل الدعاية لماركةِ بيرة، بدا لي وجه «هوريكي» وقد أخذ هيبة جني شرطي. ذُعِرْتُ.

ـ جريمة، يا عزيزي، هذا لا ينبغي أن يكون ذلك.

أن يقال إن عكس «جريمة» هو «عدالة»! تلك هي الفكرة المبسطة الموجودة في رؤوس النَّاس جميعهم، وربّما من أجل ذلك يسلكون سلوكاً جيداً في حياتهم. لكن هناك حيث لا يوجد رجال شرطة تنمو الجرائيم وتتكاثر.

ـ إذاً ماذا، مَنْ؟ الله؟ يبدو أن لك رائحة قسّ مسيحي. وهي رائحة لا أحبها أبداً.

ـ لا تحكم بمثل هذه الخفة والبساطة. لنفكر قليلاً أنتَ وأنا. ألا يوجد هنا موضوع ممتع؟ الجواب الذي يقدمه إنسان حول هذا الموضوع يولِّد رغبة أن تعرف الإنسان بالكامل.

ـ وسيلة عجيبة ومستبعدة... عكس «جريمة»، «ما هو خير». المدني التام. بكلمة واحدة، إنسان من نوعيتي.

ـ دع المزاح! لكن «الخير» هو عكس «الشر»، وليس عكس «جريمة».

ـ هل الجريمة والشرّ مختلفان؟.

ـ نعم. أعتقد ذلك. فالفكرة العامة عن الخير والشرّ هي من تكون الذهن البشري. هذه كلمات الأخلاق التي شيّدها النّاس بمهارة.

ـ كم أنت مزعج ومضجر! إذاً، لا بدَّ أن يكون العكس هو الله. الله. الله.. لا خطأ في ذلك. لا بدَّ أن يكون الله. أنا جائع!.

ـ الآن، «يوشيكو» تسلق الفول.

ـ شكراً، إنه متعة ولذة بالنسبة لي.

تمدد على الأرض شابكاً يديه وراء رأسه.

ـ بالنسبة إليك يا عزيزي، تبدو الجريمة من دون أهمية أو فائدة أليس كذلك؟.

ـ تماماً. هذا لأنني لستُ مجرماً مثلك. وعبثاً حاولت الفسق والفجور. ولم أسبب موت امرأة. ثم لا أسلب النقود من النساء...

في جهة ما داخل قلبي كان يوجد صوت مبهم، غير مميز، ومع ذلك يائس. يرتفع بالاحتجاج: «كلا. لم أدفع أحداً إلى الموت، ولم أسلب نقوداً!». لكن هذا الصوت خنقته فكرة ملازمة لي، فكرة أنني رجل سيء.

ومهما أفعل، يستحيل عليَّ أن أتحمل النقاش أو أن أصبر على الجدل. لذا كبحت بكامل قواي شعوراً خطيراً ولّده في داخلي السُكْر القاتم لهذا الكحول، وقلت كما لو كنت أناجي نفسي:

ـ مع ذلك، أن تُوضع في السجن ليس جريمة. إذا عرفنا عكس «جريمة» نتصور أنا قبضنا على جوهر «الجريمة»، لكن.. الله... الخلاص... الحب... الضوء... عكس الله الشيطان. وعكس الخلاص لا بدَّ أن يكون: الألم. وعكس الحب الحقد. وعكس الضوء الظلام، وعكس الخير الشر. الجريمة والصلاة الجريمة والتوبة. الجريمة والاعتراف، الجريمة و.... التأوهات. أليست هذه الكلمات جميعاً مترادفات؟ ما هو عكس جريمة؟

ـ عكس «جريمة» هو «عسل»، شيء ما وديع وعذب كالعسل. أنا جائع، أتدري! اجلب لنا شيئاً يؤكل.

ـ ألا تستطيع أن تجلبه بنفسك؟.

لا أعتقد أنني أخطئ إذا قلتُ إنّها المرّة الأولى التي غضبت فيها غضباً شديداً في حياتي.

ـ لا بأس، لا بأس! أنا أنزل إذاً. «يوشي ـ تشان» وأنا سنرتكب جريمة. فبدلاً من النقاش، ستكون هناك تجربة عملية. عكس «جريمة» هو «فاصولياء معقّدة بالعسل». آه! كلا، ليست فاصولياء بل فول!.

كنت سكران لدرجةِ أنني لا أستطيع النطق بوضوح.

ـ افعل ما تريد. انقلع حيث تريد.

ـ «جريمة»، و«جوع»؛ «جوع» و«فول» أليست هذه الكلمات مترادفات أيضاً؟

نهض وهو يلغو كما يحلو له ذات اليمين وذات الشمال.

الجريمة والعقاب. دوستوفسكي. بارقة عابرة خطرت لي. هل قرّب دوستوفسكي الكلمتين ووضعهما معاً كمترادفتين أو كمتناقضتين؟ الجريمة والعقاب لا يتداخلان أبداً: لا يمكن جمع الثلج والجمر معاً. كانت الأفكار في رأسي تعصف وتدور مثل صور المشكال [آلة أنبوبية تحتوي على مراءٍ مركزة بحيث أن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولِّد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان. م]: كان دوستوفسكي يعتبر الجريمة والعقاب متناقضين.. طحالب ضعيفة رقيقة كانت تمرٍّ... مستنقع فاسد.. أنبشُ خيط قنب من الألياف المتداخلة... آنئذ سمعت «هوريكي» يتحدث.

ـ تعال! رائع هذا الفول! أتدري!.

كان صوته ولون وجهه قد تغيرا. اعتقدت أنه نزل منذ لحظات مترنحاً من السكر، لكن هاهو هنا من جديد.

ـ ماذا هناك؟.

كان يبدو مهتاجاً جداً وبشكل غريب. نزلنا من على السطح إلى الطابق الأول، ومن هناك أخذنا الدرج المفضي إلى غرفتي في الطابق الأرضي. وفي الطريق توقف «هوريكي» قائلاً بصوت منخفض وهو يشير بإصبعه إلى شيء ما:

ـ انظر!.

كانت هناك كوة مفتوحة في أعلى غرفتي، ومنها يمكن أن نرى الداخل تماماً: الضوء مشتعل وفي الغرفة شخصان

ترنحتُ، أصابني الدوار. هيكلان بشريان: كانا هيكلين بشريين تمتمتُ من أعماقِ الحنجرة وقد ضاق تنفسي: «لا شيء مخيفاً في ذلك». وبقيت مسمّراً فوق الدرج.

سعل «هوريكي» بقوة. أما أنا، فصعدت الدرج وحيداً، كما لو كنتُ مطارداً. وفوق السطح ألقيت نفسي على الأرض ورحت أنظر إلى السّماء المحمّلة بأمطار تلك الليلة الصيفية. شعرت آنذاك بأنني قد هوجمت. لم أكن غاضباً. ولا حاقداً على أحد، ولم أكن حزيناً. لكن كنت فريسة رعب فظيع. لم يكن رعباً من النوع الذي قد يتملكنا أمام شبح في مقبرة. بل لعلّه الرعب الذي نشعر به عندما نلتقي، في غابة مدافن معبدِ شينتوي، روح إلهةٍ ترتدي البياض. إنه الهلع المجنون، الهلع الفظيع اللا منطقي، هلع ناس من قبل التاريخ. فبدءاً من تلك الليلة أخذ الشيب في شعري، فقدتُ الثقة بنفسي تماماً، وصار

احتراسي من النّاس بلا حدود، وهجرتُ كلَّ أمل بما قد يُنتظر من الأفعال البشرية. بدءاً من تلك الليلة. ابتعد عني - وإلى الأبد - الفرح والمودة. لقد أثّر هذا الحادث تأثيراً جوهرياً في حياتي: قُسِم رأسي إلى نصفين، من المسافة بين الحاجبين وحتى قفا الرأس. من حينها، لم يقترب مني أحد إلاّ وجعلني أتألم بسبب هذا الجرح.

- أشفق عليك، لكن هذا يفتح عينيك قليلاً. أنا، سوف لن أطأ هذا المكان بعد اليوم. حقاً، إنه الجحيم... ومع ذلك، اغفر لـ «يوشي - تشان». فهي النهاية، هي المرأة التي تناسبك.

لم يكن «هوريكي» مغفلاً لحد أن يبقى طويلاً في جو مزعج هكذا.

نهضت. شربت بعض الكحول. ثم صرختُ منادياً. صرخت لا أعرف كم مرّة. دون أي ضجيج، وصلت «يوشيكو» وكانت تقف ورائي شاردة وبين يديها صحن مليء بحبات الفول.

- طالما قلتَ إنك لن تفعل لي شيئاً...

- يكفي. لا تقولي شيئاً. لم تعرفي أن تحترسي من رجل. اجلسي ولنأكل هذا الفول معاً.

أكلنا الفول ونحن جالسان جنباً إلى جنب. آهٍ هل الثقة خطأ؟ كان خصمي رجلاً شاباً في الثلاثين من عمره. وهو تاجر غير مثقف. لكنه غني. وكان قد طلب مني رسوماً كاريكاتورية.

بعد ذلك، لم يعد هذا التاجر إلى منزلي. أما أنا، فلا أعرف لماذا كنت أشعر بالحقد على «هوريكي» أكثر من حقدي على ذلك الرجل. ربّما لأن «هوريكي» اكتشف المأساة، وبدلاً من أن يسعل بقوة في حينها أو يفعل أي شيء آخر، صعد إلى السطح ليخبرني. لقد شعرت باشمئزاز شديد منه وبغض أشد عليه لحد أنني تأوهت من الآلام طوال ليلة دون نوم.

لا عفو ولا مغفرة. لا عفو ولا حلٌ. «يوشيكو» هـي الثقـة مجسَّدةً. لم تكن تدري كيف تحترس من أحد. من هنا وقوع الحادث المأساوي تلك الليلة.

سألت الله: هل الثقة خطأ؟ إن انتهاك ثقة «يوشيكو» أصـبح بالنـسبة إليّ، وأكثر من القذارة التي تعرضت لها، نواة آلام طويلة وفظيعة لحد الموت. ولأنني فَزِعٌ جداً ولحد غير واضح، كنت أقتصر علـى مراقبـة تعابير الوجه، وكانت طاقة تصديق شـخص مـا، قـد أصـيبت عنـدي بجروح لا تشفى. براءة «يوشيكو» وثقتـها، كانتـا منعـشتين بالنـسبة لي كشلال بين خضرة. وفي ليلة واحدة تغيرت تلك المياه الصافية العذبـة إلى مياه عكرة. أما بالنسبة إلى «يوشيكو»، وبدءاً من الليلة المـذكورة، فقد كانت جاهزة للسقوط مغمياً عليها إذا عبست أو ضحكت؟

فلـدى أدنى نـداء: «قـولي لي...»، تقفـز ولا تجـد عيناهـا مكانـاً للاستقرار فيه. حتى ولو نطقت بأي شيء كـي ترتـسم الابتـسامة علـى شفتيها، حتى ولو قمت بأية دعابة من أجل ذلك، كان صوتها يرتجف ويتهدج. صارت تعيش علـى أعـصابها؛ ولكـي تـتكلم معـي صـارت تستخدم عبارات بالغة التهذيب. هل يمكن حقاً لقب بريء وواثق جـداً أن يحتوي على بذرة خطأ؟.

بحثت في ضروب شتى مـن الكتـب الـتي تتنـاول اغتـصاب نـساء الآخرين: لا أعتقد أن هنـاك امـرأة واحـدة مـن هـؤلاء، قـد لُطِّخـت بالطريقة المأساوية التي تعرضت لها «يوشـيكو». قطعـاً، لا توجـد في تلك الكتب جميعها حكاية مشابهة. لـو كـان بينـها وبـين هـذا التـاجر الشاب أدنى مشاعر الحـب، ربّمـا كنـت أقـل تـأثراً وانـصعاقاً. لكـن «يوشيكو»، وببساطة، نسيت نفـسها واسـترخت ذات مـساء صـيفي، وكان ذلك كافياً. ولهذا شعرت أن رأسي شُقّ من الأعلى حتى إلى بين

العينين، وتهدّج صوتي، وأخذت بدايات الشيب طريقها إلى شعري. ولهذا أيضاً، صار لـ «يوشيكو» صوت مرتجف أبداً. في الحكايات التي تحدثت عنها، النقطة الهامة هي معرفة ما إذا كان الزوج يغفر أو لا يغفر فعلة زوجته. أما أنا، فلم تكن مشكلتي مؤلمة إلى هذا الحد. الغفران، عدم الغفران... هل الأزواج الذين يستطيعون اتخاذ هذا القرار هم أكثر سعادة؟ عندما نفكر أن الغفران مستحيل، لا يبقى هناك حل سوى الطلاق السريع دون صخب أو ضجيج والبحث عن امرأة جديدة. وإذا أمكن الأمر، ينبغي التسامح والعفو. يتخيل الزوج أنه قد وجد، بشكل أو بآخر، هدوء البال دفعة واحدة. من المؤكد أن حادثاً من هذا النوع، يولِّد صدمة للزوج، لكنِ هذه الصدمة تختلف عن صدمة موجةٍ تتجدد بشراسة وعناد. أفكر مثلاً بالعذاب الذي تسببه إجراءات اتخذها في لحظة غضب رجل إلى جانبه الحق. لكن في حالتنا لا حقَّ للزوج أبداً. وعندما فكرت بالموضوع ملياً، لم أقل كلمة واحدة، لا كلمة غضب ولا حتى كلمة توبيخ بسيطة. لأن زوجتي لُطِّخت بسبب ندرة جمال طبعها. يعود هذا الطبع الجميل إلى هذه الخصلة التي تستحق الحنو اللامحدود: قلب واثق وبريء قد أسر زوجها.

أخَطَأً أن يكون لنا قلب بريء ويثق بالنّاس؟.

لم أكن أفهم لماذا أحتفظ في أعماقي بشكوك حول أفضل خصلة من خصال الطبع الجميل. أصبحت الكحول هدفي الوحيد، وتعابير وجهي صارت منَفرَّة. وأخذت أشرب منذ الصباح. فمي البائس سقطت بعض أسنانه. رسومي الكاريكاتورية أصبحت أكثر فحشاً. بل أريد الكلام بصراحة أكثر: بدءاً من تلك الآونة، صرت أنسخ رسوماً ماجنة كي أبيعها خفية. كنت أحتاج إلى النقود لشراء الكحول. أما «يوشيكو»، فكنت أنظر إلى عينيها اللتين تهربان دوماً من لقاء نظرتي.

كانت الدموع في صوتها على الدوام: وطالما أنها لم تكن تحترس قط، فهل جاء ذلك التاجر أكثر من مرّة؟ ثم و... «هوريكي»؟ أو ربما شخص ما لا أعرفه؟ كان الشك يولّد شكوكاً أخرى. على أية حال، بما أنني كنت أفتقر إلى شجاعة توضيح الأمر وإبراز الحقيقة، وكنت فريسة الخوف والقلق، فقد اقتصرت على شرب الكحول والسكر. في الداخل كنت أنتقل من الفرح إلى الكآبة. لكن في الظاهر، كنت أعكف على أعمال تهريجية مفككة، ثم أمطر «يوشيكو» بمداعبات حمقاء تستحق الجحيم، وتائهاً في حمأة الفسوق أستسلم للنوم العميق.

في إحدى مساءات نهاية تلك السنة، عدت إلى البيت متأخراً وميتاً من السكر. أردت أن أشرب ماءاً حلواً. كانت «يوشيكو» نائمة. ذهبت إلى المطبخ لأبحث عن علبة السُكَّر. فتحتها: لا يوجد سكّر. لكن في داخلها توجد علبة كرتونية سودا مستطيلة الشكل. أخذتها بشكل آلي، ودهشت عندما رأيت فوقها حروفاً أجنبية غريبة. كلمة ناقصة: كُشِط أكثر من نصفها بالظفر ولم يبق واضحاً سوى هذا: ديال DIAL.

في تلك المرحلة، كنت معتاداً على شرب الكحول، ولم أكن أتناول حبوباً منوّمة. مع ذلك، وبما أن الأرق كان مرضي المألوف، فقد كنت أعرف غالبية الأدوية المنوّمة. ولا بدَّ أن علبة الـ DIALهذه تحتوي على أكثر من جرعة مميتة. لم أدمِّر شريط إغلاق العلبة، على الرغم من أنني شعرت، للحظة، برغبة فعل ذلك. لم يكن هناك شك بأننا حاولنا إخفاء اسم الدواء بكشط الأحرف. لقد تأثرت كثيراً عندما فكرتُ بأن هذه الفتاة لا تعرف قراءة الحروف الأجنبية قد كشطت بظفرها أكثر من النصف معتقدة أن ذلك يكفي. (كم كنتِ بريئةً!).

بهدوء ودون ضجيج، وضعت قليلاً من الماء في كأس، ثم قطعت شريط إغلاق العلبة بتروٍ، ودفعت كامل المحتوى داخل فمي، وبهدوء شديد شربت كأسَ الماء. أطفأتُ الكهرباء ورحت للنوم.

يبدو أنني بقيت شبه ميت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. عزا الطبيب الحادث إلى نوع من التهور وتردد بكتابة تقرير إلى الشّرطة. وعندما بدأت أستعيد الوعي، يقال إن الكلمات الأولى التي تلفظت بها وأنا لا أزال في اضطراب الهذيان هي: «العودة إلى البيت». ماذا كنت أعني بـ «البيت؟» حتى اليوم لا أعرف. على أية حال، بعد لفظ هذه الكلمات تدفقت دموعي بحرارة.

وشيئاً فشيئاً انقشع الضباب. نظرت حولي: كان «هيرامي»، يجلس فوق رأسي بوجه يعلوه الضيق والانزعاج.

ـ المرة الأخيرة، كانت في نهاية السنة. أن تختار نهاية السنة لفعل شيء مماثل حيث أكون مشغولاً ولا أعرف أين أضع رأسي وبأي شيء يجب التفكير.... فذلك يجعل الحياة مستحيلة!.

وبينما كان ينبغي أن أصغي لكلام «هيرامي» دخل شخص. إنها باترونة بار «كيوباشي».

ـ صرختُ: الباترونة!.

ـ اصمت! ألا ترى حالتك! انتبه! قالت هذه الكلمات وهي تنحني بوجهها البشوش فوق وجهي فتغطيه تقريباً.

دموع غزيرةٌ كانت تنسكب من عيني.

ـ افصليني عن «يوشيكو».

خرجت هذه الكلمات من فمي على الرغم مني.

استقامت الباترونة من انحناءتها وهي تطلق تنفساً طويلاً. يبدو أني ارتكبت غلطة فظيعة دون إرادتي، عندما قلت هذه الكلمات التي أرادت أن تكون للمزاح وبلا أهمية:

ـ أريد الذهاب إلى مكان لا توجد فيه نساء.

وكان الانفجار. «هيرامي» بدأ يضحك بصوت عالٍ. أما الباترونة فأطلقت ضحكات مخنوقة. حتى أنا، والدموع منهمرة من عيني، علا وجهي الاحمرار وابتسامة متألمة.

قال «هيرامي» بضحكة منفلتة لا تنتهي:

ـ هِمْ! سيكون ذلك حلاً جميلاً!.

ـ قد يكون جيداً أن نذهب إلى مكان لا توجد فيه نساء. هناك حيث توجد نساء، لا شيء يمشي. مكان دون نساء: إنّها لفكرة رائعة!.

مكان دون نساء... هذه الفكرة، فكرةُ مخٍ في حالة هذيان، سوف تتحقق فيما بعد بطريقة فظيعة.

منذ أن شربت السُّم المخصَّص لـ «يوشيكو»، بدأ على هذه أنها تحبني بولهٍ وجنونٍ أكثر مما مضى: تكلمني والدموع في صوتها؛ لا تبتسم، لا يبدو أنها تصغي لما يقال من حولها. كان يثقل علي أن أبقى في الغرفة، لذا خرجت في نهاية الأمر ورحت كما في السابق أشرب كميات من أرخص أنواع الساكي. ومنذ حادث الحبوب المنوّمة، نحفت بشكل ملحوظ وتخدّرت قدماي ويداي. وصرت أهمل أعمال رسمي الكاريكاتورية. كان «هيرامي» أثناء زيارته لي قد ترك بعض النقود قائلاً: «هذه هديتي!». لكن هذه النقود التي كان يبدو أنه يعطيني إياها وكأنها منه، هي في الواقع نقود أرسلها أخي الكبير والعائلة في البلدة. كنت قد تغيرت منذ هجرت بيته هارباً، وصرت أكشف إلى حد ما المسرحية التي يلعبها عندما يعطي لنفسه مظهراً هاماً وجدياً. بلباقةٍ، تظاهرت أنني لا أعرف شيئاً وتوجهت إليه بجزيل شكري. لكن لماذا يلجأ «هيرامي» والآخرون إلى تعقيدات مماثلة؟ على أية حال، لم يبدُ عليَّ أنني فهمت شيئاً.

بتلك النقود، قررت أن أذهب وحيداً إلى حمامات المياه الساخنة في جنوب شبه جزيرة «إيزو» وأن أزور البلدة أيضاً. لكن لم يكن لي قلبُ أن أسوح في بطالةٍ وفراغ الحمامات المعدنية. فكرتُ بـ «يوشيكو» وبدت لي عزلتي من دون حدود. لم أكن قادراً على أن أتأمل، براحةِ بالٍ وهدوء خاطر، الجبال التي كانت تُرى من نافذة الفندق. ولذا دونَ أن أخلع ثياب النَّوم القطنية، ودون أن أستحم، أسرعت إلى الخارج ودخلت كالإعصار إلى صالون شاي بائس لأحتسي الكحول بجرعات كبيرة. ازدادت صحتي سوءاً، ولم أعد أفكِّر إلا بالعودة إلى طوكيو.

وصلتُ إلى طوكيو ذات مساء حيث كان يتساقط ثلج كثيف. سكران، وجدت نفسي خلف «كينزا» أدندن: «هنا، بعيداً عن البلد[1]...» وبرأس قدمي، كنت أركل الثلج الذي يتكدّس في الطريق عندما وجب عليَّ، فجأة، أن أبصق. وكانت المرة الأولى التي أبصق فيها دماً. فوق الثلج الأبيض تشكلت دائرةٌ حمراء تذكِّر بالعلم الياباني. جلست القرفصاء لحظة، أخذت حفنة من الثلج النظيف، غسلتُ بها وجهي ورحت أبكي. «إلى أين يفضي هذا الطريق..»[2].

من بعيد، كانت هذه الأغنية الكئيبة تسمع بشكل ضعيف وكأننا في حلم. التعاسة. فوق الأرض يوجد حشد كبير من النّاس التعساء. أو بالأحرى، يمكن القول دون مبالغة إن النّاس جميعهم تعساء. لكن هؤلاء النّاس التعساء يستطيعون الاحتجاج بجرأة على تعاستهم، وسوف يفهم العالم احتجاجهم ويمنحهم مودته وعطفه. أما تعاستي الخاصة، فلا أحد يستطيع شيئاً بصددها وذلك بسبب أخطائي جميعها.

---

(1) أغنيةٌ للأطفال تغنى على إيقاع بعض الألعاب.

(2) أغنيةٌ للأطفال تغنى على إيقاع بعض الألعاب.

ولو حدث وتمتمت بكلمة واحدة تشبه الاحتجاج، فأنا متأكد بأن «هيرامي» ومعه العالم أيضاً سيصرخون: لكننا قد سمعنا كلَّ هذا من قبل، يكفي لقد تعبنا! سوف أُتَّهم بالمزاجية وتقلّب الأطوار، أو بالعكس، سوف أُتَّهم بأنني ضعيف للغاية. وأنا نفسي لا أعرف جيداً دوافع هؤلاء وأولئك. على أية حال، بدوتُ وكأنني كدَّستُ الأخطاء فوق بعضها لحد أن المصائب في كلٍ مكان لا تكفُّ عن ملاحقتي والنزول بي، وليست هناك أية وسيلة عملية للاحتماء منها.

نهضتُ. ولاعتقادي بضرورة أن أتناول دواءً بسرعة ودون تأخر، دخلت إلى الصيدلية. نظرتُ إلى الشخص الذي كان موجوداً هناك، وإذا بامرأة ترفع رأسها فجأة كما لو أن وميض فلاش قد باغتها. جحظت عيناها وانتصبت واقفةً.

في عينيها لا تقرأ خوفاً ولا نفوراً، بل نوعاً من الحاجة إلى المساعدة والحب. آه! هذه المرأة تعيسةٌ هي الأخرى بالتأكيد. للتعساء حسٌّ خاص لفهم تعاسة الآخرين. فجأة، أمسكت بعكاز لتنهض بصعوبة وحيطة. كبحتُ رغبتي بمساعدتها. وتقاطعت نظراتنا فاغرورقت عيناي بالدموع. آنذاك، انسكبت من عينيها الدموع بغزارة.

كان هذا كلّ شيء. لم أقل كلمة. وغادرت الصيدلية في اتجاه البيت مترنحاً. طلبت من «يوشيكو» أن تحضّر لي ماءً مالحاً. شربته ونمت بصمت. وفي الغدِ، زعمت أنني مزكوم ونمت طوال النّهار. في المساء، وبما أنني لم أعد أحتمل سرّ بصاق الدم هذا، نهضت وذهبت إلى الصيدلية. هذه المرة، ابتسمت وأخبرت المرأة صادقاً بسوء صحتي طالباً مشورتها.

- يجب التوقف عن الشراب.

لم يعد بيننا أيّ سرّ.

ـ ربّما أنا مدمن كحولي. الآن وفي هذه اللحظة أرغب بالشراب.

ـ لا ينبغي ذلك. كان زوجي يقول، وعلى الرّغم من إصابته بالسّلّ، إن الكحول تقتل الجراثيم. فصار يشربها كالحليب وهذا ما قصّر حياته.

ـ عندما تكون الروح قلقة، لا شيء يمشي. وعندما نضعف ينتهي كلُّ شيء.

ـ أقدِّم لك الدواء. لكن احذفْ الساكي والكحول!.

هذه المرأة كانت أرملة، ولها ابن يدرس الطب في منطقة «تشيبا» أو لا أعرف أين، لكنه أصيب بمرض أبيه فتوقف عن الدراسة ودخل المستشفى. وفي البيت يعيش الأخ الأصغر للزوج المتوفى، طريح الفراش بعد نوبة سكتة دماغية خفيفة. أما هي فقد أصيبت في سنّ الخامسة بشللٍ طفولي حرمها تماماً من استخدام إحدى رجليها. تقدّمت عرجاً على عكازها، وأخذت مجموعة من الأدوية والأدوات، بعضها من على الرفوف، وبعضها من داخل الأدراج وأعطتني كلَّ شيء.

ـ هذا دواء لتقوية الدّم.

«هذا فيتنامين يؤخذ حقناً. وهاهي إبرة الحقن.

هذه أقراص كالسيوم ضد آلام المعدة والأمعاء.

هذا الدواء من أجل كذا، وذاك الدواء من أجل كذا».

بعاطفية ولطف قدّمت لي شرحاً حول استخدام خمسة أو ستة أدوية. مع ذلك، كانت مودة هذه المرأة التعيسة لي عميقة الأثر. وفي النهاية قالت لي: «هو ذا دواء للأوقات التي تحتاج فيها لشرب الساكي

حيث لا تستطيع إلاّ أن تشرب»، وأعطتني بسرعة ومهارة علبة صغيرة ملفوفة داخل رزمة. كان في العلبة أشياء تستخدم لحقن المورفين.

قالت لي إن الألم الذي يسببه هذا أخف من الألم الذي تسببه الكحول والساكي. أنا الآخر كنت أعتقد ذلك وأظنه. ولذا عندما فكرت بكل ما في سُكْرِ الساكي من قذارة، وبفرحٍ أنني قادر على الابتعاد زمناً طويلاً عن شيطان الكحول، لم أتردد بأخذ حقنة مورفين في الذراع. وبسهولة اختفى القلق والهيجان والخجل. وبدأت أتكلم بابتهاج وسرور. بعد تلك الحقنة، أنسى ضعفي الجسدي، وأستأنف العمل على رسومي الكاريكاتورية. وأثناء الرّسم تخطر لي أفكار غريبة عجيبة تجعلني أنفجر من الضحك.

في اليوم كنت آخذ حقنة. ثم صارت اثنتين. وعندما وصلت إلى أربع حقنات يومياً، قلت لنفسي: يستحيل العمل من دونها.

ـ هذا أمر سيء جداً. إذا أدمنت على المورفين، فالآتي أفظع.

عندما تكلمت معي صاحبة الصيدلية بهذا الشكل، تخيلت أنني أصبحت مدمناً على المورفين. (كنت أصغي وأطيع الإرشادات التي تقال لي جميعها ثم أقول لنفسي: «لا ينبغي صرف هذه النقود!» آنذاك، إذا لا أصرف النقود، فسوف تراودني أوهام غريبة مزعجة وغير متوقعة، لذا كان لا بدَّ من صرفها حالاً).

وللانتصار على القلق الذي كان يسببه لي هذا التسمم، كنت أطلب ـ أي تفكير عقيم ـ كمياتٍ كبيرة من المخدرات.

ـ أرجوكِ! علبة أخرى أيضاً! وأعدك بتسديد الحساب آخر الشهر.

ـ تسدد عندما تريد، لكنني أحترس من الشرطة.

آه! أشعر دوماً حولي بتصرفات كائنات مشبوهة تعيش في الظل وتلاحق خطواتي.

ـ يمكن أن نخدع الشرطة بشكل أو بآخر. أرجوكِ! سوف أقبلك! ويعلو الاحمرار وجه المرأة.

أزيد في الإلحاح والطلب أكثر فأكثر.

ـ إذا لم أتناول المخدرات، يستحيل أن أعمل أبداً. إنّها دواء مقوٍ لي.

ـ إذاً، حقنات من الهرمون قد تكون أفضل لك.

ـ لا تروي لي قصصاً الآن! من دون ساكي أو من دون هذا الدواء لا أستطيع أن أعمل.

ـ ينبغي ألا تشرب ساكي.

ـ كلاّ. أليس كذلك؟ فمنذ لجأت إلى هذا الدواء، لم أشرب قطرة ساكي واحدة. وبفضلكِ أشعر بصحة قوية. لم أعد أنوي القيام برسوم كاريكاتورية قذرة. من الآن فصاعداً، وبعد أن توقفت عن شرب الساكي واستعاد جسمي توازنه، سوف أعمل، سوف أثبت أنني فنان كبيرٍ. وهذا هو الشيء الجوهري بالنسبة لي الآن، ولذلك أتوجه إليك بكلِ هذه الطلبات. هل تريدين أن أقبلك؟

وأخذت المرأة بالضحك.

ـ أنا منزعجة جداً ولا أدري... ألستَ مدمناً!.

اتكأت على عكازها وعرجت لتأخذ الدواء من على الرف.

ـ لا أعطيك علبةً كاملة، لأنك ستفرغها حالاً. أعطيك نصف علبة.

ـ آخ. ما أبخلكِ! وليكن... لا بأس.

عدت إلى البيت وتناولت حقنة على الفور.

ـ سألتني «يوشيكو» بخوف: أليس هذا مؤلماً؟.

ـ إنه أكثر من مؤلم. ولكن لزيادة الفاعلية في العمل، يجب طوعاً أو كرهاً أن أحقن نفسي. هذه الأيام أشعر أنني مليء بالحيوية، أليس كذلك؟ هيا! إلى العمل! إلى العمل! إلى العمل!. صرختُ هكذا بفرح.

وفي منتصف اللّيل قرع شخص باب الصيدلية. فظهر شكل بشري يرتدي ثياب النّوم ويتكئ على عكازه. أخذته فجأة بأحضاني، قبّلته وتظاهرت بالبكاء.

ودون أن تقول كلمة، وضعتْ علبة في يدي. عندما رأيت بشكل جدي أن هذا الدواء مثل الكحول، لا بل أكثر من الكحول، شيء مقرف وقذر، كنت قد أصبحت مدمناً عليه تماماً.

كنت في الحقيقة قد بلغت أعلى درجات الخزي والعار. ولم يعد في ذهني سوى فكرة واحدة: الحصول على هذا الدواء. ولذا بدأت بنسخ رسومات جنسية ماجنة، لا بل وصل بي الأمر لحد إقامة علاقة مخزية تماماً مع عاجزةِ الصيدلية.

«أريد أن أموت. يجب أن أموت. لن أشفى أبداً. ومهما فعلنا، فأنا منتهٍ. مغمور بالخزي. لم يعد عندي ميل للنزهة على الدراجة والذهاب لرؤية الشلالات وسط الأعشاب الخضراء الفتية. ولا أزال أكدِّس الأخطاء الأكثر فحشاً. تتزايد آلامي وتصبح أكثر كثافة. أريد أن أموت. يجب أن أموت. حياتي تولِّد أخطاء أكثر». كنت أجترُّ هذه الأفكار باستمرار وأنا مثل المكوك بين البيت والصيدلية، وشبه مجنون.

حاولت أن أعمل شيئاً: وكلما ازدادت جرعات المورفين التي آخذها، ازدادت معها مبالغ المال التي كنت أقترضها لدفع ثمنها، ووصلت إلى مجموع مخيف. عندما كانت صاحبة الصيدلية تنظر إلى وجهي، تغرق عيناها بالدموع وأبدأ أنا بالبكاء أيضاً.

وللهرب من هذا الجحيم، لم يبق عندي إلاّ وسيلة واحدة، وإذا فشلت فلا حلٍّ إلاّ أن أشنق نفسي. اتخذت قراراً مصيره الإخفاق المؤكد: كتبت إلى أبي في البلدة رسالة طويلة اعترفتُ له فيها بكلٍ شيء (طبعاً، لم أقل له شيئاً حول موضوع النساء).

جاءت النتيجة كارثة على الأصعدة جميعها. انتظرتُ. انتظرت جواباً لم يأتِ. فرفعت من عدد جرعات المورفين بسبب القلق ونفاذ الصبر.

قررت ذلك المساء أن آخذ عشرة حقنات دفعة واحدة، ثم أرمي نفسي إلى النهر الكبير. لكن «هيرامي» وكأنه اشتم نوايا شيطاني الخبيث، أطلٍّ بعد الظهر وبرفقته «هوريكي».

ـ يبدو أنك تبصق دماً.. قال لي ذلك «هوريكي» وهو يبتسم ابتسامة لطيفة لا أعرفها عنده من قبل. لقد أفرحني هذا اللطف فرحاً جعلني أستدير برأسي وأبكي. لا بل هشّمني تماماً. كنت رجلاً جيداً للدفن.

وُضِعْتُ في سيارةٍ. قال لي «هيرامي» بنبرةٍ هادئةٍ ودودة: «على أية حال، يجب الدخول إلى عيادة». وطالما لم تعد لدي أية إرادة ولا أي رأي أطعت أوامر الرجلين دون مقاومة. كنا أربعة داخل السيارة بما في ذلك «يوشيكو». بعد هزّ ورجّ لوقت طويل، وصلنا حوالي المساء إلى مدخل مشفى كبير داخل غابة.

اعتقدت أن ذلك ليس أكثر من مصح. ثم أخذ طبيب شاب تبدو عليه الوداعة والبشاشة، بفحصي فحصاً دقيقاً. وبعد أن أنهى قال بابتسامة خجولة:

ـ لا بأس. يجب البقاء هنا بعض الوقت للعلاج بالاستراحة.

«هيرامي» و«هوريكي» و«يوشيكو» تركوني وحيداً وعادوا. لكن «يوشيكو»، وقبل أن تغادر، تركت لي صرة فيها ثياب متنوعة للتغيير. ثم دون أن تنطق كلمة واحدة، سحبت من وسطها عدّة الحقن مع ما تبقى من المورفين. كانت تعتقد ببساطة أن ذلك دواء يمكن أن يفيدني.

ـ كلاّ، شكراً، لا أحتاج إلى هذا.

أي شيء مدهش. للمرة الأولى في حياتي ـ أقوله دون مبالغة ـ أرفض شيئاً يُقدَّم لي. تعاستي، كل تعاستي جاءت من أنني كنت عاجزاً عن الرّفض. كنت أخاف، برفضي هبةً، أن أسبب بين الشخص وبيني صدعاً في العلاقة لا يمكن ترميمه. ومع ذلك، رفضت في تلك اللحظة المورفين الذي كنت قد طالبت به كالمجنون.

«بريئة كالرّب نفسه»: ألا ينطبق هذا الحكم على «يوشيكو»؟ في تلك الدقيقة، ألم أكن معافى من الإدمان؟.

ومع ذلك، جاء الطبيب الشاب ذو الابتسامة الخجولة وأخذني على الفور إلى جناح. وبينما كان يدخلني إليه سقطت منه المفاتيح: فهمتُ! إنه مشفى الأمراض النفسية! «سوف أذهب إلى مكان لا توجد فيه نساء»، ألم أقل هذه الحماقة أثناء هذياني بعد أن بلعت كمية من الحبوب المنوّمة. وتحقق الأمر بغرابة. لم يكن في مشفى المجانين هذا سوى المرضى الذكور، وسوى الموظفين الذكور. لم تكن هناك أية امرأة.

بدءاً، لم أعد مجرماً. صرت مجنوناً. ولكن لا، بالتأكيد لستُ مجنوناً. فأنا لم أفقد أبداً عقلي لحظة واحدة. لكن يبدو أن المجانين جميعهم يقولون ذلك. باختصار، الذين عُزِلوا في هذا المشفى جميعهم عندهم اختلال عقلي؛ والذين لم يعزلوا فيه هم ناس طبيعيون.

سألت الله:

ـ هل اللامقاومة خطيئة؟.

عندما بتسم «هوريكي» لي تلك الابتسامة الجميلة التي فاجأتني، بكيت؛ ثم دون معارضة، ودون مقاومة ركبت داخل السيارة؛ اصطُحبتُ إلى هنا واعتُبرتُ مجنوناً. والآن أستطيع الخروج من المشفى: لكن ستكون لي دوماً على الجبهة علامة مجنون؛ أو أسوأ من ذلك، مريضٌ لا يشفى.

سقوط رجل.

بدءاً، لم أعد في عداد النّاس.

وصلت إلى بداية الصيف. كنت من وراء قضبان نافذتي الحديدية أشاهدُ أزهار النيلوفر الحمراء فوق بركة حديقة المشفى الصغيرة. مرّت ثلاثة أشهر، كانت الأعشاب قد بدأت تزهر في الحديقة. وبشكل مباغت وصل أخي الكبير من البلدة ليصطحبني. كان برفقته «هيرامي». أخبرني بأنّ والدي قد توفي الشهر الماضي بسبب قرحة في المعدة. «لن تسألك شيئاً عن الماضي، ولا تقلق بشأن وجودك وحياتك. يمكن ألا تفعل شيئاً. وأيّاً كان أسفك، سوف تقاد حالاً بعيداً عن طوكيو وسوف تبدأ علاج نقاهة واستجمام في الرّيف. «شيبوتا» سوف يحلّ كلّ ما يمكن أن تكون قد تركته معلقاً في طوكيو. إذاً، ليس لك أن تشغل نفسك بهذا». تلكم هي العبارات التي قالها بنبرة جدية ودون تعليق.

رأيت أمام عيني مناظر بلدتي الأم، ثم تمتمت بالقبول بصوت مبهم.

من المؤكد أنني غير قابل للشفاء.

منذ أن عرفت أن أبي مات، أحسست أكثر فأكثر بفراغ الروح. أبي لم يعد موجوداً.. إن حضوره الحنون والقاسي في الوقت ذاته، لم يبتعد عن قلبي لحظة واحدة. أبي لم يعد موجوداً. تصورت أن كأس آلامي فارغة. وإذا كانت تلك الكأس ثقيلة إلى هذا الحد من اليأس، أتساءل إن لم تكن الغلطة هي غلطة أبي. إنني منهك ومحبط تماماً. فقدتُ حتى القدرة على التألم.

أوفى أخي الكبير بوعده وعداً وعداً وبدقة. فعلى بُعد أربع أو خمس ساعات بالقطار من المدينة التي ولدت فيها وحيث ترعرعت، وفي مكان دافئ بشكل مدهش بالنسبة للشمال ـ الشرقي من اليابان، توجد مياه معدنية حارّة قرب البحر، هناك وفي قرية اشترى لي أخي بيتاً عتيقاً مؤلفاً من خمس غرف. لكنه عتيق جداً ويصعب ترميمه. وُضِعَتْ لي خادمة عجوز تقارب الستين عاماً ولها شعر أصهب.

منذ ذلك الحين، مضى على وجودي ثلاث سنوات تقريباً. ولا أدري كم مرّةً وبختني ودفعتني العجوز «تيتسو». كنا نتشاجر من حين إلى آخر من أجل أعمال البيت. أما حالة صدري، فقد كانت تسوء تارة وتتحسن تارة أخرى. أنحف مرة وأسمن أخرى. وعندما بصقت دماً من جديد، أرسلت العجوز «تيتسو» لشراء كالموتين من صيدلية القرية. ذهبت وجاءت بعلبة يختلف شكلها عن الشكل المألوف. وقبل أن أنام بلعت عشرة أقراص دون أن تكون لي أدنى رغبة بالنوم. ثم وجدت الأمر غريباً عندما شعرتُ في الأمعاء بآلام غير طبيعية. أسرعت إلى المرحاض وإذا بي إسهال شديد. كان عليَّ أن أتغوط ثلاث مرّات. شككت بالأمر وفحصت العلبة. فإذا هي علبة «إينوماتين»: دواء للإسهال.

نمت على ظهري ووضعت كيس ماء ساخن فوق بطني ورغبت بتوبيخ العجوز «تيتسو»:

ـ بدأت أقول لها: «هذا ليس كالموتين، هـذا يـسمى إينومـاتين...» ثم انتـهيت إلى الانفجـار ضـاحكاً. مـريض «لا يُـشفى». اسـم هـزلي مـضحك! أردت النّـوم. حلمـت بـأنني شـربت دواء مـسهلاً يـدعى إينوماتين.

والآن لا أعرف السعادة ولا التعاسة. الحياة تمضي.

لحد هنا، عشت في الجحيم. وهذا هو الشيء الوحيـد الـذي يبـدو لي صحيحاً وحقيقياً في عالم البشر.

الحياة تمضي، تمرُّ، ولا شيء آخر.

هذه السنة سأبلغ الـسابعة والعـشرين. وشـعري قـد ابـيضَّ بـشكل ملحوظ جداً. في نظر الآخرين، أبدو وعمري أكثر من الأربعين.

خاتـمة

لم أعرف شخصياً المجنون الذي دوّن هذه الملاحظات، لكن أعـرف قليلاً صاحبة بار «كيوباشي» التي وردت في هذه الذكريات: قصيرةً، ذات سحنة مشوشة وعيناها مائلتان ومشدودتا الأطراف كعيون المغول، أنفهـا محدَّب معقوف. تعطي الانطباع بأنها ولد جميل أكثر من أنها فتاة جميلة.

أعتقد أننا نستطيع التعرف في هـذه الملاحظـات ـ الـذكريات علـى طوكيو في سنوات 1930 ـ 1932. ذهبـت مـرتين أو ثـلاث مـرات إلى ذلك البار في «كيوباشي» بصحبة صديق عندما كـان العـسكر في سـدّة الحكم والجميع يتحدث عنهم علانية، أي حوالي سنة 1935، ولذلك لم أستطع التعرف على صاحب هذه الدفاتر.

وأياً كان الأمر، ذهبـت في شـهر شـباط مـن تلـك الـسنة (1935) لزيارة صديق في «فوناباشي» بمنطقة «تشيبا». ارتبطنـا بـرابط الـصداقة عندما كنّا طالبين. كان قد أصبح أستاذاً محاضراً في جامعة للبنات. في الحقيقة، كنـت أريـد أن أقتـرح عليـه الـزواج بإحـدى قريبـاتي؛ وفي الوقت نفسه كنت أنوي أن أشتري لعـائلتي مـن هنـاك أصـدافاً بحريـة طازجة، ولهذا أخذت معي حقيبة ظهرية للذهاب إلى «فوناباشي».

«فوناباشي» مدينة كبيرة إلى حد ما، تقع على شاطئ بحر قليل العمق. وكان صديقي فيها ساكناً جديداً. عبثاً كررت لسكان المنطقة رقم بيته، لكن أحداً لا يعرفه. كان الجو بارداً، والحقيبة تجرح كتفـي. مـن صـالون شاي، سمعت نغم كمنجة صادر عن أسطوانة. دفعت الباب ودخلت.

كان وجه باترونة ذلك الصالون مألوفاً لي. استخبرتُ عن الأمر: فإذا بها باترونة بار «كيوباشي» التي قد عرفتها منذ عشر سنوات. وسرعان ما بدا عليها أنها تذكرتني. عبرنا بابتسامات قوية وبلطفٍ عن دهشة متبادلة. وبدلاً من الأحاديث المألوفة آنذاك حول معاناة من فقدوا بيوتهم بعد الحرائق التي سبّبها القصف الجوي، أخذنا بأطراف هذا الحديث الذي لا يخلو من التأنق.

ـ مع ذلك، لم يُغيِّركِ شيء!.

ـ أوه! بلى. أنا امرأة عجوز. الجسد خراب. لكن أنت لا تزال شاباً!.

ـ آه! أي خطأ! عندي الآن ثلاثة أطفال، أتعلمين! ولإطعام هذه العائلة أتيت اليوم لأتبضع من المصدر الأساسي.

ثم تبادلنا مجاملات اللطف المألوفة بين شخصين لم يلتقيا منذ زمن طويل. كما تبادلنا الأسئلة حول أخبار الأصدقاء المشتركين. وبعد قليل غيّرت الباترونة لهجتها قائلة: «لا أدري إن كنت تعرف «يو ـ تشان»، فأجبتها بأنني: «لا أعرفه». ثم اختفت في غرفة داخلية لتعود ومعها ثلاثة دفاتر وثلاث صور وضعتها أمامي قائلة:

ـ لا أدري إن كان لا يوجد هنا في هذه الدفاتر مادة لرواية.

لا أكتب شيئاً حول مواد يطلب إليَّ أن أتفحصها بسرعة. لكن سرعان ما تساءلت عما إذا كنت لن أغير رأيي. (تحدثت في المقدمة عن غرابة الصور الثلاث) والحق أن هذه الصور شدتني واسترعت انتباهي. على أية حال، رجوت الباترونة أن تعطيني دفاتر الملاحظات هذه، لأنني كنت أنوي المرور من جديد إلى عندها قبل أن آخذ الطريق إلى طوكيو. سألتها إذا كانت تعرف بيت صديقي الأستاذ الجامعي المدعو فلان، في شارع كذا، رقم كذا. كانت تعرف كلَّ شيء، لأن الاثنين، صديقي

وهي، كانا مهاجرين جديدين إلى هذه المدينة. وكان صديقي يُرى من حين إلى حين في صالون الشاي هذا. فهو يسكن قريباً منه جداً).

تلك الليلة، تبادلنا، صديقي وأنا، بضعة أكواب من الساكي. وقدَّم لي المبيت عنده. لم أنم لحظة واحدة حتى الصباح: كنت غارقاً في هذه الدفاتر.

إنَّ المدوَّن في هذه الدفاتر يتعلق بالماضي. لكن من المؤكد أن هذه الدفاتر هامة ومفيدة بالنسبة للجيل الحالي. وبدلاً من أن أدخل عليها شيئاً من عندي، رأيت سليماً أن أطلب إلى ناشر أية مجلة نشرها كما هي على حالها.

الأصداف البحرية التي كان عليَّ شراؤها من أجل الأطفال، استبدلت بها أشياء مجففة. وضعت حقيبتي على ظهري واستأذنت صديقي بالانصراف. ثم مررت من جديد إلى صالون الشاي:

ـ حقاً، أشكركِ لطيب استقبالك يوم أمس...

وانتقلتُ فجأة إلى الموضوع الذي يهمني.

ـ هل أستطيع أن أستعير منك هذه الدفاتر لبعض الوقت؟.

ـ طبعاً بالتأكيد. أرجوك تفضل...

ـ ألا يزال هذا الإنسان على قيد الحياة؟.

ـ بصراحة، لا أستطيع أن أقول لك ذلك. لا أعرف. منذ حوالي عشر سنوات، وصل إلى عنوان بار «كيوباشي» طرد يحوي هذه الدفاتر وهذه الصور. من المؤكد أن المرسِل كان «يو ـ تشان»، لكن لم يُكتب على الطرد لا عنوان «يو ـ تشان» ولا حتى اسمه. وأثناء القصف الجوي، ضعت كآخرين كثر، ونجوت بأعجوبة. ولم أقرأ هذه الدفاتر للمرة الأولى بالكامل إلاّ مجدداً.

ـ هل بكيت؟.

ـ آه!.. هذا أقل ما يقال... انتهى الأمر. عندما يصل الإنسان إلى هذا الحد، ينتهي كل شيء.

ـ ثم، منذ عشر سنوات... لعلّه قد مات. وربّما أرسل إليك هذا الطرد تعبيراً عن الشكر والامتنان. هناك مقاطع مكتوبة بشيء من المبالغة. مع ذلك، أنتِ نفسك، قد عانيت وتألمتِ بشكل فظيع. إذا كانت هذه الذكريات حقيقية، ولو كنت أنا صديقاً له، فلا أدري إن كنت، أنا أيضاً، لا آخذه إلى مشفى الأمراض النفسية.

ـ قالت دون امتعاض ظاهر: «أبوه كان سيئاً».

ـ «يو ـ تشان» الذي عرفناه، كان سليم النية وبريئاً بعمق. بقليل من الانتباه والرعاية، ولو لم يشرب الساكي... لكن لا! حتى عندما كان يشرب، كان طفلاً طيباً وشبيهاً بإله.

الفهرس



太宰治



عاشق كبير للنساء. أناني جداً، بكّاء، متأوه، ثائر ضد التيار الأدبي السائد. لكنه حكيمٌ ومفكِّر جيّد منذ بداية ظهوره على الساحة الأدبية. إنّه طفل مريع. مدمن مخدرات. مصاب بجنون الاضطهاد. وهذا ما أتاح له أن يكون مدّاح نفسه وأعنف ناقد لها في الوقت ذاته، هو الكاتب الياباني الوحيد الذي أنتج أعمالاً أدبية خصبة النوعية في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات (1930 - 1940) عندما كانت الأمة اليابانية تعيش زمن الأيديولوجية العسكرية وزمن الأصولية الوطنية المتطرفة. هذا الكاتب الأكثر شعبية بعد الحرب - وربّما لحد الآن - يضع حداً لحياته وفي عزّ مجده الأدبي، إذ ألقى نفسه في مياه قناة شبه مستنقع مع عشيقة عصابية ومهووسة بالموت، تاركاً وراءه زوجة دون أي فلس واحد، وثلاثة أطفال صغار، وعشيقة أخرى لها منه طفل لم يشاهده أبداً حياة مثيرة جداً ولا أحد يستطيع سردها أفضل من دازاي نفسه.